

قيصر وڪليو پٽرا

إسماعيل مظهر

الكتاب: قيصر و كليوطرا

الكاتب: إسماعيل مظهر

الطبعة: 2018

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: 35825293 - 35867576 - 35867575

فاكس: 35878373



<http://www.apatop.com> E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

مظهر ، إسماعيل

قيصر و كليوطرا / إسماعيل مظهر

- الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولي: 5 - 533 - 446 - 977 - 978

أ - العنوان رقم الإيداع : 16158 / 2018

قيصر وكليوباترا

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون» 

نُطَوِّفُ مَا نُطَوِّفُ ثُمَّ نَأْوِي
إِلَى حُفْرٍ أَسَافِلُهُنَّ جَوْفٌ
ذَوُو الْأَمْوَالِ مِنَّا وَالْعَدِيمِ
وَأَعْلَاهُنَّ صُفْحٌ مُقِيمٌ

الإهداء

إلى إزيس

الحب الأول أو قيصر وكليوباترا

قصة تاريخي¹

كانت الحرب الأهلية دائرة الرحي بين پوميپوس الكبير، ويوليوس قيصر، وكانت مصر في أخريات عصر البطالمة، قد لجأت إلى رومية تطلب منها العون وتستمد الحماية، وكان بطلميوس أوتيلس، والد كليوباترا،

قد خلف وصية، ترك فيها أمر الوصاية على أولاده الأربعة، بطلميوسين وكليوباترا وأرسنوي، للجمهورية الرومانية، فلما مات انقسم الأحزاب في رومية شطرين: شطراً يريد أن يتخذ من هذه الوصية ذريعة لامتلاك مصر، مفتاح الشرق، وشطراً يكتفي بسط النفوذ الروماني على البلاط البطلمي في الإسكندرية.

وكان «پوميپوس» الكبير ممن عطفوا على بطلميوس أوتيلس، والد كليوباترا، واستخدم نفوذه ليعود إلى العرش، بعد أن اضطر إلى مغادرة مصر إثر ثورة دموية اضطرت منها الأحوال، وانتكست الأمور، فلما أن رجع بطلميوس إلى مصر واسترد عرشه، أصبح للقائد الروماني شبه دالة على بلاط الإسكندرية.

¹ اعتمدت في هذا القصص على مراجع أهمها كتاب آرثر ويجل، وكتاب كلود فرفال.

ومات بطلميوس أوتيلس، فتزوج أكبر ابنه، بطلميوس الثاني عشر، من كبرى بنتيه، كليوبترا السابعة، تنفيذًا لوصيته، وخضوعًا لعرف الأسرة البطلمية، ودارت رحى الدسائس، يزكها فوتينوس وأخيلاس وثيودوتس، ليستأثروا بطلميوس الصغير الأحق، بأن يبعدوا عنه النمرة الصغيرة: كليوبترا، أخته وزوجته.

فرّت كليوبترا ناجية بدمها إلى حدود سورية، ومضت تجمع الجيوش لغزو مصر من طريق سيناء، وجمع بطلميوس حشده وتحصن في قلعة فلوسيوم، وهي ميناء مصرية حصينة، تشرف على البحر، وتقع في سفح الصحراء المنخفضة المرملة، على بضعة فراسخ شرقي الموقع الذي تقوم عليه الآن «بورسعيد»، وتأهب الجيشان للجلاد: هذا للهجوم، وذاك للدفاع.

وكانت كليوبترا قد أشرفت بجيوشها على قلعة فلوسيوم، وأخذت تعد العدة للهجوم على قوات أخيها المحتمية من وراء الأسوار، وفي المواقع الحصينة القائمة من حول القلعة، ومضت تزحف حذاء الشاطئ، حتى لم يبق بينها وبين المدينة إلا بضعة أميال، وفي الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٤٨ ق.م. وقع حادث، قُدِّر له أن يكون سببًا في كتابة صفحات جديدة في تاريخ مصر، فقد رأى الناظرون من الشاطئ، سفينة حربية، دارت حول قمة برزت في البحر غربي فلوسيوم، وألقت مراسيها على بُعد قليل من الشاطئ.

من فوق هذه السفينة وقف القائد پومپيوس الروماني، وزوجه كُرنليا، بعد أن هزم في موقعة فرساليا، وفرَّ إلى مصر محتميًا بملكها بطليموس الثاني عشر، ولكن الحالات التي كانت قائمة في العالم الروماني، أوقعت پومپيوس ومستشاروه في حيرة؛ فإن مصر إذا حمت پومپيوس، وقعت في حرب مع يوليوس قيصر، عدوه، وإذن يكون في قتل پومپيوس مَحْضًا من هذا المأزق الحرج، وتمت المؤامرة على ذلك، وقتل پومپيوس، وفي تلك الأثناء هبط يوليوس قيصر الإسكندرية متعقبًا خصيمه، فلما علم بمصرعه، أراد أن ينتهز هذه الفرصة السانحة، ليتدخل في شئون مصر، متخذًا من وصية «بطلميوس أوتيلس» ذريعة إلى ذلك؛ فبعد أن دخل الإسكندرية، وحط رحاله في قصرها الملكي، أرسل رسلاً إلى بطلميوس وكليوباترا، ليوافياه إلى الإسكندرية، فيصلح ذات بينهما، فسارع بطلميوس ومستشاروه بالعودة، ليحولوا دون كليوباترا والعرش بكل وسيلة، ولكن كليوباترا كانت تعلم حق العلم أن هبوطها الإسكندرية جهرة بمثابة حكم عليها بالإعدام، فإن أخاها لن يتعفف عن أن يغري بها رجلاً من رجاله، يقتلها غيلةً، فتسللت إلى الإسكندرية، ودخلتها تحت جناح الظلام مستخفية، لتبدأ مأساة «الحب الأول».

كانت الساعة حوالي الساعة من المساء، والملاحون يفرغون من السفن آخر ما لديهم من أحمال البضائع، على أرصفة الإسكندرية المزدحمة، وأخذت سفائن الصيد تلقي مراسيها سراعًا على مرافئ ثغر «أونستوس» Eonostus كأهن طيور عيقت عن الرواح، وبدأ الليل

يرخي سدوله السوداء، عندما تسللت آخر سفينة إلى الميناء، كأنها تحاول أن تلتفح من الليل بسترٍ يحميها العيون.

من هذه السفينة، نزل رجل عريض الأكتاف، قوي الأضلاب، وقد اشتمل بعباءة سوداء، سترت جسمه من مفرق رأسه إلى قدميه، وشد قلنسوة السفر على رأسه، حتى سامت حافتها أذنيه، ثم مدَّ يده في عناية وتؤدة، ليأخذ بيد سيدة صغيرة السن، خفيفة الخطو كأنها القطاة، حتى يخيل إليك أنهما ما تزالان في طور الطفولة.

بيد أن كليوطرا لم تكن طفلة، بالرغم من أنها لم تكن قد حطمت السابعة عشرة من عمرها، بعد أن أمضت سنتين زوجاً لأخيها، الذي حملتها تقاليد الأسرة الملكية على أن تتزوج منه، بعد أن مات أبوها، وكانت شريفة طريفة، فهي تعود مستخفية تحت جناح الظلام، مظلة بحماية «أفولودورس» **Apollodorus** هابطة الإسكندرية هبوط النسر، بعد طول التجواب، وقد كسبت من التجارب قدرًا، قلما حازته من بنات حواء، من كانت في مثل عمرها.

وإنك ولا شك تعجب، إذا حاولت أن تكشف عما انطبع في نفسها من الأحاسيس والانفعالات، لو أنك قرنتها بمثيلاهما من الفتيات، فقد نشأت في بلاط قضى فيه الفسق والفجور، على الشرف والعفة، وهي بعد ابنة «بطلميوس الحادي عشر»، الملقب أوتيلس **Auteles** ذلك الملك الهاوي الخليع المولع بالفنون الجميلة، الذي إن ذلك شيء

على حقيقة خلقه، فليس أدل عليه، من أنه واجه زجرة الثورة في داخل بلاده، وخطر غزوها من الخارج، بمتابعة العزف على قيثارته.

سليلة شعب مثقف على الوجه الأكمل.² نبغت في الأدب والفنون، وتعلمت على أخص القواعد التي عرفت لعهدا، فكانت نظرة هذه الفتاة الفذة في الحياة، عريضة واسعة على غير مثال.

فإن مثيلاهما من الفتيات، لا يفكرون عادة، بعد أن يفك عقلمن، ويخرجن إلى ميدان الأنوثة، إلا في أمرين: إما في تقديس الفضيلة، وإما في انتهاب المذات، أما هي فكانت ترمي إلى أن تتحايل، وأن تحكم، ولقد خصت بقدر من حرية الفكر، كانت تنظر من طريقه في الأشياء نظرة، تُسلمُ بها إلى وجوهها الصحيحة.

عرفت ما للرجال من قيمة، فإما أرادت أن تتلهم بهم، وإما أرادت أن تخدم حظوظهم، فإنها استعانت في كلتا الحالتين بروح توقدت ذكاءً، والتهبت فطنة، واحترت تشهياً والتياغاً.

من ثم أدركت ملهمة بذلك الوحي الذي تختص به العقول الرشيدة، والقلوب الحساسة، أن حظاً باسمًا يرقبها، لما أن علمت أن قيصر قد هبط الإسكندرية، ولكن كيف تتصل بهذا الرجل العظيم؟ وبأية من الوسائل تستغل سلطانه الواسع، وتفوز بالعضد الذي ينقلها من

² نقصد بذلك الشعب اليوناني الذي انحدرت منه كليوباترا.

غيابات الصحراء ووحشة المنفى، إلى كرسي مصر، ويرفعها من طريدة إلى ... ملكة على عرش فرعون؟

كان الحكيم «أفوللودورس» أستاذاً في البلاغة، وأكبر المشفقين عليها، سفيرها الذي بدأ المفاوضات، ولقد أظهر «قيصر» بديهة الأمر، أنه أميل إلى الأخذ بناصر الفتاة المضطهدة، منه إلى نصره بطلميوس، ووزيره اللبق الماهر.³

فلم إذن تخالج كليوطرا الهواجس؟

كانت تحت رقابة مشددة، جاهلة بمسالك الطرق ومناحي السبل، التي ملئت بالعصابات وقطاع الطرق، ولكنها بالرغم من ذلك أقدمت على العودة مصحوبة بعبدين لخفارتها، وسلكت

طريقها إلى كَنُوبَسُ Canobus حيث كان ينتظرها «أفوللودورس»، ولقد وثقت من أنها سوف تصل إلى غايتها، ما دامت مظلة بحماية أستاذها، محوطة بحنوه عليها، وإخلاصه لها.

ولم تغل السياحة من خطر، فإنها حذر أن تتجه إليها الأنظار، أو تأخذها العيون، وقع اختيارها على أصغر زورق من زوارق الصيد، وقد أشرف مرة على الغرق، وكادت الأمواج تبتلعه ومن فيه؛ لذلك شعرت «ابنة لاجوس»⁴ Lagidae الصغيرة بشعور المرح والاطمئنان، الذي يجامر من يفلتون من مخاطر الماء، عندما وطئت قدمها الصغيرتان

³ فوتينوس.

⁴ نسبة إلى جد الأسرة الأول. وكان أول البطالمة يدعى بطلميوس بن لاجوس Lagos.

المرتعتان ثرى عاصمتها ... ثرى الإسكندرية المحبوبة، وقد نظرت إلى قباها، نظرة من يعتقد أنها ملك له ومتاع.

أما الخطوة الثانية فكانت الوصول إلى القصر! وكيف تصل إليه، ولم يك ذلك بالسهل الهين؟ فإنه بالرغم من وجود الجند الروماني، كان عسس الملك⁵ وعيونه في سهر ترقب، أما إذا عرفت كليوبترا، فإنها ولا شك تذهب ضحية لمقت أخيها.

كان «أفوللودورس» من حُسن الحظ، أريباً قوي الشكيمة، صلب القناة، ولقد أدرك ما يتطلب موقفه من مهارة وفطنة، فلفَّ الفتاة في أسمال بالية، ورفعها من فوق كتفيه القويتين، كما لو كانت حملاً من البضائع التي ينقلها الحَمَّالون ذهاباً وجيئة، على أرصفة المرفأ.

من ذا الذي يرى مثل هذا الحَمَّال العظيم، يسير بخطواته المتناقلة المتشددة على أرصفة الميناء، يئن تحت حملة كما يئن غيره من الحَمَّالين، ثم يدرك أي سر حوى ذلك الحمل الثمين؟ ولما بلغ باب قصر «الْبُرْخِيُوم»⁶ Bruchium عرف الحرس من هو، ولكنه ادَّعى أن قيصر طلب إليه أن يأتيه بصنوف من السجاد، فأذن له الحراس، ودخل من باب القصر، خائفاً يترقب.

⁵ جواسيسه.

⁶ Bruchium في اليونانية من معانيها ذراع، إشارة إلى المكان الذي شيد من فوقه القصر، وكان بروزاً من الأرض معنفاً في البحر، شرقي الموقع الأصلي لمدينة الإسكندرية.

كان «يوليوس قيصر» قد حطّم طور الفتوة، واستمتع بكل ما تحبو به الحياة إنساناً من الفخر والعظمة والملاذ، حتى لقد كانت أعصابه تنمُّ بعض الشيء عن آثار ذلك.

أصابه الصلع وشيكا، وتغضن وجهه، فظهرت بين طيات جلده أخاديد عميقة، فكان صلعه، وتجاعيد وجهه، بخطوطها البينة، دلالتين على كثرة ما قاسى من متاعب، وأنس من آلام، ولكن أقل المثيرات كانت كافية لأن تبعث من خلال نظراته بذلك الوميض السماوي، الذي يصقله السناء والإشراق، وينم عن العظمة والجلال، وما كان لإنسان أن يحتك بقيصر، من غير أن يشعر بجاذبية القوة والفتنة التي لم يدرك أحد لها من علة، فقيل: إن قيصر سليل إلهين: أنياس أبوه؛ والزهرة أمه.

كان إذا تكلم اجتذبت رشاقة إشاراته ورنين صوته الداوي إنصات السامعين، وسكتوا كأن الطير على الرءوس، فكسب عطفهم، وفاز بتأييدهم، إلى غير نهاية يعرفها العطف، أو يقف دونها التأييد، فإذا صمت، كان صمته فصاحة وسحراً؛ لأن الناس كانوا يذكرون خطبه الرنانة، وكلماته الثابتة، التي تحملها الرياح إلى جنبات الدنيا الأربعة.

أينما سار، سارت في ركابه ذكرى أعماله الفذة المذهلة، فكان الناس يتخيلونه على رأس الفيالق الرومانية يقودها، فيكتسح بلاد الغال، وكان أول من غزاها، ثم يهبط مهاوي جبال الألب السحيقة، فيجتاز الرُوبيكون Robicon، ويزحف على رومية، وقد اتقدت بنيران

الثورة، فتهدأ ثورتها، وتنحل قواها انحلال الثلوج في اللظى المضطرم، لما أن يظهر قيصر في الميدان.

ولم تقتصر أوهام الناس على ذكر الحقائق، وتخيُّل الممكنات في حياة «قيصر»، فحوطوها بالأساطير وسيَّجوها بالخرافات، فقد زعموا أن «الجرمان» الذين هزمهم، أمة من الجبابرة، في نظراتهم الموت، وقالوا: إن «بريطانيا»، وكان أول روماني أقدم على هبوطها، تظل في ظلام دامس ثلاثة أشهر من كل سنة، وإن جوها مُفعمٌ بالأرواح، وهذه الأحاديث وما يتصل بها، زادت صيته بُعداً، وانتصاراته قيمة، فضخمتها وملأها مهابة.

لكي تلجأ إلى مثل هذا الرجل تطلب نصحه وتعزيده، عمدت كليوطرا إلى الكلام بعض الشيء في حقوقها الطبيعية، بيد أنها لم تكن من الحماسة بحيث تؤمن بأن حق المرأة، مهما كان شأنه، ومهما علت قيمته، هو غاية ما تلجأ إليه من وسائل الإقناع.

لما أن خرجت كليوطرا من الأسمال التي حجبت مفاتها منذ هنيهة، تملكها شعور أشبه بشعور حيوان صغير أفلت من الأسر، وبجماع ما في المرأة من غريزة الغيرة واستتعار الحرارة، اجتذبت مرآة فضية، كانت معلقة بزئارها.

يا لها من فوضى، تلك التي رأت في هندامها! كان معطفها مشئى كثير التجاعيد، وقد تدلَّى شعرها المرسل على كتفها كستنائياً موجاً، بل

لم يبق أثر للكحل من حول جفونها الوسنانة، ولا للخضاب الأحمر في شفيتها أو على خديها.

ولكن ... أكانت هذه المدعية، وهي على وشك الظهور أمام القاضي الأعظم بعد لحظات قصار، أقل ازدهاراً أو تورداً، أو أقل بجاءً أو سلباً للألباب أو تحيراً للأفكار، أو أقل رشاقة وفتنة، مما يتطلب موقفها؟ كانت مشفقة وجلة على كل حال.

مضت تترقب كيف يلاقيها الرجل الذي اعتاد أن يختلب الرومان، ذلك الإنسان الفذ الذي اضطر الناس، من أشدهم استمساكاً بالفضائل، إلى أكثرهم تطوحاً مع الرذائل وإمعاناً في الفساد، أن تعنو له وجوههم، وتذلُّ له رقابهم، ذلك بأن شهرة قيصر كانت عالمية؛ في زمانٍ تقطعت بالعالم المعمور أسباب الاتصال، ولكن الجميع كانوا يعلمون حق العلم، أن ذلك الفحل العظيم، الذي جمع نبوغه بين صفات القائد والكاتب والمشرع والخطيب في أعلى مراتبها، وأرقى ذرواتها، كان إباحياً فاسقاً، فبالرغم من المنكرات التي ينغمس فيها الشباب، وانغمس فيها قيصر مزهواً بما في الحياة من فرح ومفاتن، فإن غزواته ومخاطراته، قد أدت إلى أحزان عميقة، حيمت على كثير من البيوتات الكبيرة، وبخاصة على بيوت الكثيرين من أصدقائه.

ولمَ لا؟ ألم يقترون اسم «قيصر» في العالم الروماني بقولهم: «قيصر زوج كل النساء» *omnium mulierum veri*.

ولقد ملأ كليوبترا الروع لغير ضرورة، فإن طبعاً يتشهى الجدة،
ويجن إلى التغيير، ويتزع إلى الابتكار والشذوذ، ويتحرق إلى مخاطر
جديدة، وأعصاباً منهوكة متعبة كأعصاب «قيصر»، لن تألف من شيء،
ألقتها منظر الملكة الفتية الفاتنة.

ولقد شعر «قيصر» بهزّة عميقة، يتعذر وصف أثرها، سرت في
شرايين جسمه، منذ أول نظرة أخذ بها تلك القطعة الحية من فن الطبيعة،
على جسمها الجميل المتسق، وقوامها الأهيف، وحاجبيها المرتخين في
استقامة واعتدال، والأشعة النفاذة المنبعثة من عينيها، وأنفها الدقيق
الشهي، وشفتيها المنفرجتين الموحيتين بالشهوة، وبشرتها اللامعة
الكهرمانية، التي تغري المرء بها، إغراء فاكهة مفرطة الطيب، لوحتها
الشمس.

يا للآلهة! لقد عجز الغرب كله، كما عجزت رومية بعداراها
الفاتنات المغريات، عن أن تمبه شيئاً أشد من كليوبترا اختلاساً للنهى، أو
اختلاباً للّب، فسألها وفي نفسه لوعة تقسره على أن يستجيب لأيما تقول
وتطلب ليصل منها إلى غرضه: «ماذا في طوقى أن أفعل من أجلك؟ أي
شيء تطلبين؟»

فأجابته كليوبترا مغرية فتانة، وبلغة لاتينية فصيحة كانت تجيدها،
كما تجيد اليونانية والمصرية والسورية وعدة لغات آخر، ووصفت في
بلاغة، عنف الاستبداد الذي قاست منه الأمرين، والإجرام الصارخ
الذي بدّها من تاج الملك طرداً وتشريدًا؛ وقالت قول الواثق المستودع

لسر رهيب، وفي قالب كله إغراء، إنها تلجأ إلى قيصر القاهر، عسى أن يرد لها تاجها المعتصب المفقود!

وكان صوتها حلواً أحياناً، حتى إن الأخبار التي روتها، وحقوقها التي اغتصبها أخوها الغادر الخداع، قد نزلت، تفيئة أن خرجت عباراتها من بين شفيتها، من قلب «قيصر» منزلة الحقائق التي لا ناقض ولا راد لها، وكيف لا تقع هذا الوقع من نفس ذلك القاضي الفيصل الشجاع، وقد فتنه ذلك الوميض السماوي، الذي بعثته عينها الساحرتان؟

ولقد همَّ «قيصر» أن يمنحها كل سُؤلها، غير أن عقبات تقف في سبيله، فإنه هبط مصر صديقاً وحلَّ بها ضيفاً، وليس له فيها غير عدد قليل من الجنود؛ في حين أن جند بطلميوس فيالق منظمة، وعلى تمام الأهبة للدفاع عن عرشه وعن ملكه، فيجب إذن أن يستعلي النهى على الطيش، وأن يستقوي العقل على المشاعر؛ لأن «إطلاق كلاب الحرب من حظائرها، لم يحن حينه».

أما «كليوبترا» فقد حاولت في حماسة مشوبة النار، ولكن بكل ما يتطلب الموقف من اتزان الحكم والروية، عجيب أن يكونا لفتاة في مثل عمرها، أن تمسَّ «قيصر» نيرانها المتلظية، فإذا كان «قيصر» عاجزاً عن أن يعلن الغزو توّاً، إذن فليدعُ زحفه على عجل، وفي أقرب وقت ممكن، وفي انتظار الجنود يعلن ارتقاءها ملكة على عرش الفراعنة.

وبينا هي تتكلم، كان قائد رومية ورجلها الأوحد، عاجزاً عن أن
يجول نظره عنها، ملاحظاً كل إشارة من إشاراتها المتسقة، مُصغياً إلى كل
كلمة تخرج من بين شفيتها.

«كليوبطرا، يا لك من خليلة معبودة!»

ذلك ما جال في خاطره، لما أن استروح عقب شعرها الكستنائي
المتهدل من فوق كتفيتها.

ولقد استيقنت «كليوبطرا» من أنها غزت العاهل الأعظم، وأنه
أصبح مقوداً إلى أن يفعل ما تريد، فساورتها هزة أفعمتها لذادة، وحدثها
القلب حديث المهسّ الخفي: «عما قريب سأكون ملكة».

لما علم بطليموس الثاني عشر، أن أخته التي اعتقد أنه تملص منها
قد هبطت الإسكندرية، وأن «قيصر» قد أقسم ليردنها إلى العرش،
أخذته نوبة من تلك التوبات التي تساور الحمقى المنحدرين من سلالة
دبّ فيها الفساد، وتمشى فيها الانحلال، شأن البطالمة في أخريات أيامهم،
وصاح من أعماق نفسه «يا للخائنة!» وركل زهرية من «المورا»⁷ الثمينة
رائعة الجمال، فحطمها وتطايرت شظاياها.

«لقد تحايلت عليّ! إنَّ القرار الذي اجترأت عليّ إعلانه، خيانة

ملعوننة.»

⁷ المورا Murrah حجر أو مادة ثمينة كان يتخذ منها الرومان أوان أو كنوساً نادرة غالية الثمن مقطوعة المنال.

وما لبث أن عهد إلى «أخيلاس» بقيادة الجند، وأعمل السيف، فقتل الحرس الروماني.

كان هذا الحادث نذيراً بحرب سوف تندلع ألسنتها، وكان من الظاهر أن «قيصر» تناصره كل قوى الجمهورية الرومانية سوف ينتصر في النهاية، غير أن هبوب رياح التمرد والثورة، ولم يكن جنده مدرباً على معالجتها، قد أحدث أول الأمر حالة، من الصعب الاضطلاع بملابساتها.

ليس من الرشد في شيء أن يشتبك جند «قيصر» في مناوشات تقع في شوارع الإسكندرية وساحاتها، وفي ظروف غير مواتية، من غير أن يفكر في موقفه هذا، وكان الرشد في أن يتحصن وجنده خلف أسوار قصر «البروخيوم»، فإن هذا القصر بأسواره المنيعة، وجدرانه القوية، وقبابه الشمم، صالح لأن يتخذ عند الضرورة قلعة يلوذ بها الحرس الروماني مدافعاً، حتى تصل جنود «قيصر»، فتقلب الآية.

أما أن تسجن «كليوبترا» مع الرجل الذي كانت تحيك من حوله شبكتها لتأسره وتستعبده، بل لتسلب منه كل قوة على التفكير في هم من هموم الدنيا، اللهم إلا مصالحها وذاتها، فذلك غاية ما تشتهي، ونهاية ما يتجه إليه خيالها، وتسبح فيه أحلامها.

كان قصر «البروخيوم» من الآثار التي خلفها الإسكندر، ثم زاد إليه أخلافه، وكانوا، كما كان الفراعين من قبل، ذوي شهوة للبناء والتشييد، ولكن بفن أعلى، وذوق أرفع وأنعم.

وقد تربع ذلك القصر من فوق ربوة عالية تشرف على سلسلة من التلال تنحدر هابطة تحت قدميه الواحد تلو الآخر، حتى تُغَيَّبَ في البحر، فكان من فوق ذلك الكرسي العظيم، بقبابه وأروقته وأجنحته الضخام، أشبه بمدينة يناجيه الماء، وتغازلها السماء.

هو كِنٌّ للجمال وحصن للحرب، ليس لعظمته من مثيل في أقطار الدنيا، فقد جمع بين ضخامة الفن الفرعوني، ورواء الفن الإغريقي، وجماله وخيالاته وأحلامه.

وكان الجناح الذي خصص للملكة الصغيرة قد لقي من عناية «بظلميوس أوتيلس» أبيها، ما جعله خليقاً بمتزلتها من نفسه، ومحبتها من قلبه، ولقد أحب «أوتيلس» كل نادر وكل جميل، ذلك بأن ذوقه الموسيقي، جعله يحنُّ إلى صفاء الفن الهندسي، حنينه إلى ألفة الأنعام.

ولقد ظهر آثار ذلك كله في ما زوِّد به جناح القصر الذي خصص لابنته، من بدائع الخيال، وروائع الفن، ففي كل زاوية أثر من فنَّان، أثر من «ميرون» أو «إفرقتيلس»، أو «قدياس» فتلك ثريات جملتها الأقواس، وزينتها المنحنيات؛ وهذه مقاعد أفرغ عليها الفن جمال القطع والتخطيط، ناهيك بالمباخر التي يصعد مع دخانها أنقى العطر، وأشهى الطيب؛ والطنافس التي ازدانت بنقوش عليها من جمال الطبيعة مسحة ورواء، أما الخزائن فكانت من العاج النقي، ترهقه طبقة من الذهب الخالص.

وما كنت لتقع على حجرة أو بهو أو منعطف أو زاوية، إلا وتأخذك نشوة من المرح، وهزة من الغبطة، حتى ليخيل إليك وأنت في صحوك، أنك في عالم من الأحلام، قوامه حسن الصورة، وجمال الألوان وتفاني الظلال، وجملة القول أن كل شيء هنالك كان قد أعد للإغراء بالدنيا، وتحصيل لذة العيش ومتعة الحياة.

عامة ذا ليس بشيء إذا قرن بجمال الحدائق الغناء التي كانت تحيط بذلك الصرح العظيم، تلك الجنان الوارفة التي لن تظلمها من سماء، غير سماء مصر الصافية.

كانت نسيمات البحر تمب عليها علية، فإذا اختلطت بعبق الأزهار، أيقظت الروح وأيقظت الجسم، وهنالك بين الأشجار الملتفة يقوم مرتفع من فوقه آخر إلى غير نهاية، ورباطها جميعاً درجات من المرمر الناصع البياض، وقد نامت في أحضانها بحيرات صغيرات، تغذيها نوافير بماءٍ نثير كأنه البلور المصفى.

ما أشبه هذه البحيرات بالأحلام! كانت إذا غازلتها نسيمات البحر تغضنت قليلاً، ثم تساوقت غصونها موجات، حتى تغيب متكسرة على حافتها كأنها الأجنحة المهيضة، تلك يقظتها... ثم ما تلبث أن تعود إلى الأحلام.

من تحت تلك المرتفعات تمر أنفاق تزود القصر والحدائق بماء النيل،
وفي ذلك سر النماء، وسر الحياة، التي كنت تأنسهما مندققين في معين
تلك الجنة الظليلة.

أشجار دائمة الخضرة جُلبت من مناطق إقليمها أكثر من إقليم
مصر اعتدالاً، وأخرى من التين والنخيل، خط الاستواء مرباها، وقفت
هناك مشرفة بهامة الجبار على بحر الروم، وأزهار تفتحت أكامها عن
جمال فيه نضارة، وفيه اتساق علتته تباين الألوان، هي نوارات مختلفات،
وأخر متشابهات، حملتها شجيرات منبتها بلاد فارس أزواجاً بهيجة، أزرت
بما كان في حدائق «إبطانة» على شهرتها التاريخية، كلا — بل بما كان
في حدائق «بابل».

من تلك الورود أنواع تسلقت جدران القصر حتى ساوت حجرة
الملكة الحاملة، المغمورة في شهواتها، المجنونة بمطامعها.

أي مطعم ذاك الذي يملأ قلب «كليوبترا»؟ أيكون لهذه الثائرة
التمردة من مطعم يتزل عن رومية؟ رومية وحدها! هي مطمحها، أما لا
تطمع، بعد أرض الفراعنة، في أكثر من أرض الرومان ... ولكن.

هنالك من نافذة القصر، أطلت زهرة يانعة تجلّت في نورياتها قوة
الحياة والإشراق، ومن تحتها وعلى فريع صغير، زهرة ذابلة.

الأولى حمراء بلون الدم، أما الثانية فصفراء باهتة.

تطلعت إليهما «كليوبطرا»، فذكرتها الأولى بالحياة، أما الثانية،
فبأي شيء توحى؟

يا لها من أحلام.

أكان عجيب من ابن «الزهرة»، ذاك الذي حملته حاجات الحرب،
ومطالب الضرب والقتال، على أن يصمد صابراً على رمضاء الشرق
حيثاً، وعلى زمهير بلاد الهمج الذين يقطنون أقصى الشمال حيناً آخر،
أن تأخذه في محيطه الجديد نشوة تسكره بلذاذات ذلك القصر وتلك
الملكة؟

لقد اتفق كل شيء من حوله على أن يزوده بنعائم حياة قلماً
ألفها! نعائم تتوجهها مفاتن «كليوبطرا» وشبابها وسخريتها من الدنيا ومن
الأحداث، ولقد أحبها «قيصر» لأول نظرة حباً ألهته شهوة حارة، هي
أشبه بذلك اللطى الرائع الذي تجلو به الشمس سماء الخريف، بعد أن
يموت الصيف، وتلبس الأشجار حلتها الزاهية، انتظاراً لنوم الشتاء
الطويل.

ولقد استجابت «كليوبطرا» لنداء الحب، ولبت داعي شهواتها،
فألقت بنفسها في أحضان اللذة غير وانية، فالحرمان والنفي، والخوف من
أن تعود سيرتها الأولى طرداً وتشريداً، كل هذا جعلها تتحرق شوقاً إلى
تذوق السعادة، وانتهاج لذائذها، ومن غير أن تسأل «قيصر» عن طبيعة
ذلك الحب الذي كان يغمرها به، ومن غير أن تفكر هنيهة في بواعث

الأناية التي تكمن من ورائه، دلفت إلى حياة اللذة، مأخوذة بنشوة انتصارها وتسودها.

ولمَ لا؟ لقد كان لها في تلك الحال أن لا تفكر، وكان لها أن لا تشفق من شيء أو تخاف شيئاً، ما دامت راضية بكل ما يحوطها، قانعة بأن تظل بين ذراعي «قيصر»، ما ظلت «مصر» بين ذراعيها.

كم تمنى أن تقع على من يحميها! وها هي ذي، قد وقعت على الرجل الذي يحميها ويجبها بجمرة ولوعة.

من فوق سفينة القدر التي ألقى مراسيها على الشيطان المهجورة، أسلمت «كليوباترا» قيادها، وعهدت بحمايتها، إلى ذلك الرجل العظيم، وكأنها ألقى بروحها إلى قوة من قوى الكون الخفية، التي لن يفكر إنسان في تحليل عناصرها، أو تحليل حقائقها، ولنن لم يكن حبه قد أثار في قلبها حباً مثله، لكفى أن يبعث حب قيصر القاهر في روعها شعوراً بالفخار والعظمة، وأن يُحييَ فيها آمالاً تفعمها، فلا تترك في نفسها محلاً لأمل آخر تصبو إليه؛ فغرقت في أحلام حملتها على أجنحة الخيال إلى مستقبل رائع عظيم، وطارت في عالم الغيب، حتى خيل إليها فيما يُخيل، أن سفينة القدر قد أقلعت بها إلى غاية، إن جهلت ماهيتها، فإنها ولا شك باهرة، ما دام قيصر ربان سفينتها.

وبالرغم من أن أصوات المنجنقات، وصخب العدد الحربية، حوالى أسوار قصر «البروخيوم»، كثيراً ما كانت تصل سمع العاشقين،

فقد مرت عليهما الأيام هنية رخيّة، فلم يعكر صفوهما دخيل، ولم يفكرا في شيء، إلا في أن يكون كل منهما مبعث سعادة لصاحبه، حتى إذا انصرفا عن كل شيء في الدنيا، أقبلا على حديث الحب، وما إلى الحب من أحاديث، ولقد حققا بذلك مثلاً أعلى كثيراً ما نشده العاشقون عبثاً وتخيله المحبون تخيلاً، مثل العزلة الكاملة، تظلل بسلامها العاشقين.

وأخذت الجيوش التي أرسل «قيصر» في طلبها تفد على مصر، فجاء من «قيليقية» ومن «رودس» سفائن مثقلة بالرجال والميرة، وشرعت كفة الأسراء ترجح كفة الآسرين، ولم يلبث العاشقان غير بعيد حتى أصبحت القوة المحتكمة التي تكيف الطرف بحسب ما تشاء، وقد أمدهما بلاد «الغال» بكتائب من المشاة، ورومية بأثقال من عتاد الحرب، وامت الأهبة للجلاد، بعد أن قدم «كلفينوس» على رأس كتائب قوية تامة العدة من الفرسان، وسرعان ما رفع الحصار الذي طال أمده ستة أشهر، وانتقل ميدان الحرب إلى الرحاب.

وكان جيش «أخيلاس» أقوى مما قدر «قيصر»، وأوفر عُدة، بل لقد كان لما أبدى قائده من المهارة والدربة في فنون الحرب، أثر كثير ما زجَّ بقيصر في أحوال المواقف، ولكن «قيصر» ومن ورائه رومية كلها، بقوتها وماها وأنفتها، لا بد من أن يصل إلى النصر؛ وأخذت بُدءة المنتهى تظهر بوادرها، لما أن ساق «قيصر» جيوشه عبر الدلتا.

ومن فوق الأرض التي هي هبة النيل، من فوق الدلتا المقدسة،
ثارت عجاجة الموقعة الفاصلة، فهُزم جيش بطلميوس، كلا، بل ارتد في
غير نظام، حتى ارتقى في أحضان النيل، ومزق تمزيقاً.

ورأى بطلميوس أن لا مناص له من الموت، فاقتبل النيل وغمز
جواده غمزه قوية، فانطلق كالسهم إلى غمر النهر الفائض، ليكون
مركبه إلى عالم الأرواح.

بهذا حكمت الأقدار، ولكن «قيصر» كان أرفق بأعدائه منها، فقد
عفى عن «أخيلاس» بعد أن قيد أمامه في الأغلال، لقد اكتفى «قيصر»
بهمزة أعدائه، وارتد عجلان صوب الإسكندرية.

هنالك من الطابق السابع في برجها العظيم، ارتقت «كليوبترا»
عودة قيصر، فلما اكتحلت عيناها بمرأى النسور الرومانية لامعة في وهج
الشمس، دق قلبها دقات شديدة قوية، وفقدت كل صبر عن لقائه،
فأمرت بهودجها، وقالت لحملة: «أسرعوا».

فانطلق بها اثنا عشر عبداً من عبيدها الأحباش، والعرق يتصبب
من جباههم ومن فوق أرجلهم الأبنوسية، وهم يودون لو مُكِّن لهم أن
ينهبوا الطريق نهباً.

ولقد أرسل الصقر الذهبي القائم من فوق هودجها وهجاً لامعاً،
وعكست ستائر المخمل الأرجوانية المعلقة بجانيه لوناً شديد الحمرة،
جعله مرئياً من بُعدٍ، وعند أول إشارة آذنت بأن «كليوبترا» قد وصلت

إلى مكان الزحف المنتصر، ترَجَّل «قيصر» بخفته المعهودة، وعليه مخايل الفروسة التي لا تفارقه، ومضى يجيي حبيبة قلبه وروحه، فقد أمضى أياماً بعيداً عنها، وقد شاقه حبها، وتمنى أن يضمها إلى صدره ضمة، يفرغ فيها كل لوعته، ويعبر بها عن جُمَاع صبايته.

«إن مصر لك، إني ما غزوتها إلا لألقي بها عند قدميك، فاقبلها.»

وألقى إليها بمفاتيح الإسكندرية، وكان «أخيلاس» قد سلمها إليه، عقيب الهزيمة.

منذ تلك الساعة، عرف الثوار قدر رومية، وأحسوا بطشها وعظمتها، وأدركوا عمق الهاوية التي حفرها من ورائهم «فوتينوس»، فلقد انتكست آمالهم، وتبدلوا من مطامع الأمس الذهبية، بياس اليوم المرير، أما أولئك الذين نزعوا إلى الانتقام والثأر من قبل، فأصبحوا لا يطمعون في أكثر من عفو يبقي الرءوس التي ملأها الخيلاء، قائمة من فوق الأكتاف، بعد أن ترنحت وكادت تطيح بها الأقدار!

من ذا الذي يجروء على أن يناقش في حق ملكة وضعها «قيصر»، رجل الدنيا الأوحده، من فوق العرش؟ كلا، ليس هنالك من إنسان رخصت عليه رأسه، حتى يناقش في هذا، ولقد قوبلت «كليوبطرا»، لما أن ظهرت للناس أول مرة، بهتاف النصر والخضوع ترسله حناجر الجماهير، وقد غصت بها طرقات الإسكندرية.

شكرًا إذن لتلك الحرب التي ما أثارها إلا حب «قيصر»؟ فكانت
ألهية من أهيات رجولته، غير أن هو «قيصر» قد ردَّ إليها تاج آبائها
العتيد.

ولقد أرادت «كليوبترا» أن تحوز رضا الناس وتفوز بثقتهم،
فعملت على إحياء تقاليد الأسرة التي كانت تقضي على الملكات بأن
يكون هن أولاد من صلب العترة الملكية، فأعلنت قبولها الزواج من
أخيها بطلميوس الثالث عشر.

كان كل شيء قد تم على ما يرغب قيصر، وآن له أن يغادر مصر
إلى رومية، حيث ينتظر حزبه أوبته بلجاجة، ولكن «قيصر» لم يصبح سيد
نفسه، فقد شملته الشهوة، تلك الشهوة التي ظلت حتى أخريات أيامه،
النبع الوحيد الذي صدرت عنه كل أعماله، فقدّمها على واجباته وعلى
مطامعه، وعلى مصالحه العامة والخاصة، وجرّته إلى آخرته المخزنة، فأجل
الرحيل، وتصامم عن النذر التي كان ينقلها إليه كل رسول يهبط مصر
موفدًا إليه من رومية، وألقى بسمعه إلى فانتته، فاستجاب لها؛ ولقد ألفت
في روعه، فوق ما ألفت من قبل، أن من تمام سعادتها أن يرافقها في رحلة
يجوبان فيها مصر، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.

كانت السياحة في تلك الأيام على ظهر النيل، كما هي اليوم،
ومنظر الآثار التي خلفها الفراعين قائمة على ضفافه، منتجعًا للفكر،
وسلوى للنفس، وكان ملوك المال من النبلاء، وأمراء الشرق الفائض
بالثروات الضخمة، ورجال الفن من الأغارقة والأسيويين، بعد أن يمتعوا

بلذائذ الإسكندرية، ويقفوا على آثارها، يُيممون شطر مصر العليا،
ممتطين سفائن هيئت بكل ضروب الزينة والزخرف، يحملها النيل، وتظلمها
سماء مصر الصافية الباسمة، وكانت الرحلة تستغرق أسابيع، ينفقها
السائحون منتهبين للذائذ، أو مكين على درس الآثار القديمة الخالدة.

وكانت سفينة «كليوبترا» بمثابة قصر، عرشه الماء، وقد صنعت
حجراتها وأبوابها على غرار قصر «البروخيوم» مصغراً، أما الأسطول
الذي اختارت الملكة أن يكون في رفقتها، فقد حمل عددًا عظيمًا من
الحاشية والخدم والعبيد، ناهيك بالراقصات والشعراء والموسيقيين،
الذين عملوا جميعًا جهد ما يستطيعون، على أن يقتلوا الوقت قتلاً،
ويبددوا الزمان تبديداً، حتى تصبح الحياة في تلك الرحلة، سلسلة متصلة
من الأحلام الهنية.

وكان الشتاء على الأبواب، وقد يعرف الذين شهدوا الشتاء في
الأقاليم الشمالية من كرة الأرض، أن هذا الفصل يغمر الناس بكسفه
المدهمة، ويغشى على الحقول بغشاوة من الحزن، ويذر الأشجار عارية
من الأوراق، فإذا دهمتها الرياح اهتزت أماليتها المعراة هزات فيها كل
تعابير اليأس والقنوط، ولكن الطريق التي سلكها العاشقان، كانت طريق
التألق والإشراق، فالسماء صافية، والشمس منعشة وهاجة، ومياه النيل
تنساب في سكون «كأنها الأمل العريض، في وحشة الفراق».

وشقت سفينة «كليوبترا» طريقها في النيل، بخمسين مجدافاً من
خشب الأبنوس الخالص، في يد خمسين عبد نوبي، أشداء أقوياء

الأصلاب، فانسابت متهادية، تظللها الحرية، وتحدها السعادة، وتنسبط أمامها الرحاب تنلقاها بالراحتين، لتسلم بها إلى أرض الميعاد، والشمس من فوقها تزداد حرارة، كلما أمعت السفينة نحو الجنوب، كأنها تُحيي العاشقين تحية صامته، مرسله إليهما على أجنحتها الذهبية.

وبعد أن تمادت السفينة عدة أيام من فوق النيل المقدس، فخلفت من ورائها فراسخ عديدة كستها الخضرة الزمردية، وأضفت الطبيعة على أشجارها بماء اللازورد، دلفت فجأةً إلى رحاب أخذت خضرتها تقل شيئاً بعد شيء، وما لبثت غير قليل حتى أصبحت بين شاطئين قاحلين، لا يأتي النظر فيهما، مهما امتد، على غير رمال صفراء، وتلال تناثرت من فوق تلك الرقعة الفاقعة اللون، التي تتواصل أمام النظر حتى تلتقي بالأفق، كسلوك زريابية، تندفق في بحر من اللجين، وقد رُصعت تلك الرمال بأدغال من شجر العود، تمايلت أوراقها النصلية تمايل النشوان الثمل، أو بمرجات من النخيل كللتها الأخواص الريشية؛ فيخيل إليك أنها مشاعل أعدها عَفْرِيَّةٌ من الجن، لتنير تلك البيد المترامية؛ إذ ما انفجرت رءوسها عن هب عظيم.

فلما وصلت السفينة تلقاء «مفيس»، أشرفت على هياكل قامت كتلها الصخرية من فوق عمد عظام، وقصور ذات قباب بيض، زادت الشمس شهبتها بماء، وأبواب كأنها قطع الجبال، وقد أطلت جميعاً على النهر الأقدس، فانعكست صورها على صفحته النحاسية.

وألقى المسافرون عصا الترحال إزاء الأهرام، فأعجب «قيصر»
وحق له أن يعجب لتلك القوة العظيمة، والمهارة الفائقة التي أعتدت من
الحجر الصامت، قبورًا تنطق بعظمة الماضي، أما الذين هم من شيعة
«أفلاطون»، أولئك الذين لم يأبهوا بحاجات البدن ولذائذ الجسم،
واعتقدوا أن الخلود إنما هو نتيجة للجمال الذي تحسه الروح، والهدوء
الذي تأنسه النفس، فقد سألوا أنفسهم! أية أفكار تلك التي حوّمت في
وجدان «خوفو»، و«خفرع» وأتراهما، عن سر الحياة وسر الموت؟ أكان
اعتقادهم أن الموت هو الحياة في عالم آخر، ليست حياة الأرض إلا وسيلة
تسلم إليه؟ أرفعوا القواعد من هذه الأحداث العظام تحية للموت؛ أم
أرادوا أن يتحدوا الفناء، ويسخروا من البلى، فشيّدوا تلك المنلثات
الباقيات؟

لقد تناثر من حول «مفيس» كثير من الآثار الساحرة التي خلفها
القدماء في السهل المنبسط من وراء المدينة، ولكن «أبا الهول» كان أبعثها
على التأمل وأدعاها إلى العجب، ولقد ترغب «كليوبطرا» إلى «قيصر»،
محبها وحاميتها، أن يقايس بين ملامحها الناعمة، ولامح «أبي الهول»
الجهم العظيم، لعله يقع على أوجه من الشبه بينهما.

وأخذت الشمس تتوارى من وراء تلال «لوبيا»، بعد أن أشرف
الحبان على «أبي الهول»!

ما أشبه ذلك المسخ العظيم، قابلاً من فوق فراشه الرمل، بهولة من
الهول الأسطورية، شرعت في الانفلات من أمواج بحر لحي؟ ها هي تقبيل

الشرق! وقد ارتسمت على فمها ابتسامة ساخرة كادت تغيب في الظل المعكوس عن الشمس الغاربة، وارتمت على ظهرها الأحوى خيوط من الأشعة الباهتة، فلا يستها صورة حي من الجابرة العظام، حطّ في تلك البقعة فجاءة، فذرى جلاميدها أبايد.

لقد استوحى «أوديپوس» من قبل مسخًا كأبي الهول، استوحاه مشفقًا مما تخبئ الأيام، أما وإن «قيصر» القاهر، عاهل الرومان وسيد الدنيا، ما زال يسبح في بحر الحياة اللجي، والليالي من حوله تذهب الواحدة تلو الأخرى مثقلة بالأحداث، فعليه أن يقف أمام الرمز المصري مطرق الرأس خاشع البصر، مكتنف النفس بشقى الحسوس المتنافرة، لعله يحظى منه بشيء ينير سبيله في الحياة!

أجيب قيصر أنت يا سر الأسرار؟ كلا، ما فاز أحد قبل «قيصر» منك بجواب، وما كنت تخشى عظمة قيصر، فإنها عظمة يخشاها الفانون وأنت من الخالدين، ولكن لا، فبرغمك أجبت «قيصر»، وبرغمك أجبت غيره من أبناء الفناء، وإنما كان جوابك تلك الابتسامة السحرية التي ظلت تسخر من الشعوب والأمم والأقدار.

ولقد غشيت «قيصر» غاشية من التأمل والفكر، فمرت بخياله ذكريات رومية وواجباته ومكانته من الدنيا الحافة به، وما في القيصرية التي يحميها من متضارب الأغراض وكامن المطامع التي لا يقيمها إلا قيصر وحده؛ وأخذ يصيح بقلبه إلى موحيات ذلك الهس النفسي العميق، ولكن ذراع النمرة المصرية طوّق «قيصر»، فاستفاق من غشيته، وتطلع

فرأى القمر يبرز من وراء الرمال محمر اللون، كأنما هو نفس من أنفاس الليل، فأنساه حديث النفس، وصرفه إلى حديث الحب مرة ثانية، ذلك بأن الحب كان قد أخضع «قيصر» وتملك حواسه جميعاً، فأعماه عن كل شيء إلا عن «كليوبترا»، وأصم أذنيه، إلا عن حديث قلبها.

في اليوم الثلاثين من بدء الرحلة، بلغ العاشقان جزيرة «فيله»، تلك الدرّة العصماء التي يحويها الأخضران: الماء والسماء، ولقد رق كلاهما وشف، حتى لقد يتعذر عليك أن تقضي أيهما ظل لصاحبه، ولا غرو، فلقد كانا مصدرًا للوحي الذي استلهم منه الشعراء على مدار العصور، ولقد حط كل من بلغ «فيله» رحاله فيها غير طامع بأن يحظى بفردوس آخر من فراديس الأرض؛ فهناك ضرب المفتون مخايمهم، وألقوا العصا على بساطها السندسي، قانعين بأن ينعموا فيها بعبادة الجمال، ناسين كل ما آنسوا من آلام الحياة في غيرها من رحاب البسيطة، وقليلًا ما هم، أولئك الذين سعدوا بهذه الأمنية المنشودة.

ذلك بأن جزيرة «فيله» كانت ملكًا لكهنة «إيزيس» منذ أزمان لا تعيها الذكريات، وكانوا يعتقدون أن دخول غيرهم فيها، تهجمًا على حرمتها وتدنيسًا لقداستها، ولقد كان لهم أن يتيهوا على الناس عجبًا، ويملئوا الأرض فنحارًا، بأنهم حفظة هيكل أفرغ عبده عليه من المال ما جعله أغنى هياكل مصر جميعًا، على فرط غناها، وتالد عزها، وزاد في نفوذهم أنهم احتموا بالآلهة المحبوبة، فحظروا على أي كان من الخلائق أن

يعد إلى أمورهم أصعبًا، أو يتطلع إليها بطرفة عين، فاستأثروا بموارد الهيكل، وحججوا غيرهم عنها، أنفة واعتزازًا.

وجرت العادة في كثير من الهياكل والمعابد ألا يشوب صفو العبادات والمناسك فيها شائبة من الدنيويات، لهذا رأى الناس في مقدم الأسطول الملكي فرصة ينفسون بها عن أرواحهم المقموعة، وأخيلتهم المكبوتة، فخرجت إلى عرض النيل سفائن شحنت بالموسيقاريين تحيي العاشقين الملكيين، واصطف على جانبي النيل طوائف من الكهنة يرتلون أغنياهم المقدسة، ولقد اضطر العاشقان أن يوافيا الهياكل بزيارات يقومان فيها بأداء الفروض الدينية ويستمعان للمواعظ والخطب، وأن يستقبلا وفودًا تحمل إليهما الهدايا الثمينة والتحف النادرة، وهناك نحرت الكباش تضحية وقربانًا، وجرى دم الحمام قانيًا.

وما انتهى الاستقبال الملكي حتى أبدت «كليوبترا» رغبتها في أن تترك و«قيصر» في انفراد وهدوء، بعيدين عن هموم الرسميات، وكانا يقضيان هاجرة النهار في خلوتهما؛ ومن حولهما نوافير تلتف من حرارة الهواء؛ وتتدفق مياهها في برك صغيرة نامت في أحضانها زهرات النيلوفر ترنو بأعين ناعسة، وتعكس ألوانًا مختلفة، من بياض ناصع، إلى لازورد اشتدت زرقته، إلى أرجوان قرمزي، ينبعث من نورياتها الوادعة الهادئة، وبهذه المثابة نسي العاشقان كل هموم الحياة، وما تتطلب الحياة من ميول ومطامع ورغبات.

ولئن نسيت الملكة كل شيء، فإنها ما نسيت ساعة واحدة، الغرض الذي من أجله اقتنات عاهل الرومان، إلى أقصى حدود مصر، وكانت قد عقدت العزم على أن تربط حاميتها الأعظم بذكريات لا تمحوها الأيام، ولا تفعل بها السنون، وأن تثبت في روعه أن مصالح مصر ومصالحه شيء واحد.

وكانا، إذا عسعس الليل، وأرخت الظلماء سدولها على الوجود، يخرجان إلى الحدائق يجوبان ممراتها الجميلة الساكنة، ويشمان عقب البنفسج، أو يدرجان بين الخمائل المنتفة، فيساقط على رأسيهما التبر المصري الذي حمله هواء النهار، وكسى به الأشجار اليانعة، ولقد تجيب «كليوبترا» على ما يوحي إليها به «قيصر» من بسمات الأمل، ولكن في فرقٍ أشبه بفرق الأطفال.

«نعم، نعم، إن بلادي أجمل بقاع الأرض، ولكن إخضاعها من جسام الأمور.»

وما يني «قيصر» عندما يحس نعومة الذراع الذي يطوق عنقه، عن أن يعد «كليوبترا» وعد الصادق الأمين، بأن بلاده لن تقصر، بكل ما أوتيت من قوة وبطش، في حمايتها والذود عن حياضها.

على أن عزلة الملكة وقيصر، وبعدهما عن الظهور للناس، أمران لن يطولا إلى غير نهاية، فأرادا قبل أن ينهيا عزلة الحب، أن يخلدا ذكرى هذه الأيام التي قضياها معاً في سعادة ما شأها من شيء إلا خطرات كانت تمر

بمخيلة «قيصر» عن رومية وهموم قيصريتها المترامية الأطراف، أو همس
كان يساور «كليوبطرا» فيما يكون لو أن «قيصر» اضطر يوماً إلى
الرحيل عن أرض السحرة الأقدمين؟

وإنما يخلد ذكرى الحب عمل تتوارثه الأجيال، وأي شيء تتوارثه
الأجيال غير هيكل تعبد فيه «إيزيس» المحبوبة؟ وفي وسط خميلة من شجر
الدّفَل والتين المصري، سكنتها أطيّار أضفت الطبيعة على أرياشها ألوان
قوس قزح، وضع العاشقان الحجر الأساسي من هيكل الحب والجمال،
ولقد انسلخ ألفان من السنين، طوت الأرض خلالهما ثمانين جيلاً من
أجيال البشر، وكل من زار فردوس «فيله» يقف وقفة المأخوذ بسحر
ذلك الرواء الذي خلعه الفن على تلك العمدان القورنثية، الواقفة هنالك
عنواناً على الوداعة، ورمزاً للجمال، ولم ينقش على ذلك الهيكل من اسم
يدل على الآلهة التي شيد ليكون وقفاً عليها، ولكن ما وقف أمام ذلك
الهيكل من إنسان، إلا وأدرك بديئة، لمن وضعت قواعده: ورُفعت أركانه.

في الإسكندرية، هبط وفد من الرومان، ينتظر عودة قيصر!

لما علم الرومانيون أن قائدهم، فاتح الممالك ومدوخ الشعوب،
ومبيد الثورات، وغازي أرض الفراعنة، وأن بطلهم الذي لا ملجأ لهم
غيره، ولا محط لآمالهم سواه، قد عبثت به «سرسية» الجديدة؛ تملكهم
الرعب، ومشى في قلوبهم الخوف والوجل.

أيجيل إلى قيصر أن في مقدوره أن يتحدى القدر؛ فإن ما أقام من
مجد، وما شيد من عظمة، وما بنت عبقريته من طارف المجد وتالد العزة،
قد ينهار ويتحطم، إذا تولاه الإهمال، وعملت فيه يد التهاون، ومن ذا
الذي في استطاعه أن يحدس النتائج التي تترتب على هو قيصر، لو أن
فلول حزب «بومبيوس» قد جمعوا كيدهم مرة أخرى، إذا علموا أن
قيصر يلهو، وأنه قد أخذَ بمفاتن ملكة، فراح يهبها قلبه، ويثها نجواه،
ويبادلها الهوى والغرام، كلا، بل إنه سخر رومية لمطامعها، وساق كتائبها؛
فرساناً ومشاة، ليغزو مصر، ثم يلقي بها عند قدميها.

أما الذين هم كانوا أقوى جنائاً، وأصرح نفوساً، وأثبت قلوباً، فقد
جاهروا بمخاوفهم، ومضوا يتربون الحوادث في انتباه وحذر، حتى لقد
غشت على رومية غاشية من القلق، وأخذها ما يشبه الدوار الكاذب
الذي يأخذ أولئك الذين يملكهم تيه الصحراء.

ومهما يكن من أمر المرأة، ومهما يكن في صدرها الحنون من
عطف وملذات، ومهما استروح فيها الرجل من عقب السعادة والنعيم،
فإن بطلاً من طراز قيصر، لا بد من أن يصيخ لكلمات صحبه، وأن يهب
من ذلك الفراش الوثير مدعوراً، إذا ما أهابوا به «إن شرفك في الميزان»!

ولم تكد هذه الكلمات تخترق أذنيه، حتى استيقظ «قيصر» من
سباته، وانتبه فيه البطل، واستخفى الشاعر، كيف لا وقد أدرك أن كل
ما أتى من أعمال عظيمة خالدة، وأن كل ما بنى وشيد، وأقام ونجد، إنما
يذهب في لحظة هباء، ويطير مع الريح بدداً، إذا هو لم يستجب لوشي

الساعة، فإن من واجبه أن يغادر مصر تَوًّا، وأن يحل عن عنقه ذراعي النمرة التي كادت تستعبده، نعم، كان من واجبه أن يركب جناح القطا إلى رومية - غير أن هنالك واجبًا آخر، فإنه كان يحتاج إلى قليل من الزمن، يمهد فيه السبيل للإفضاء بذلك النبأ العظيم إلى المرأة التي كانت ترى فيه العون الأوحد في الحياة، والملاذ الأخير في الدنيا، وبكل ما يتطلب الموقف من لين ودعة، وبكل ما يوجب ذلك الظرف من هدوء وعطف، أفضى «قيصر» إليها بالنبأ الذي روَّعها، وملاها خوفًا وإشفاقًا.

- «إذن فأنت تحاول أن تحل ذراعي من حول عنقك؟»

وبجماع ما فيها من حرارة وفتنة، جذبتة نحوها، وضمتة إليها، وتشبثت به تشبثًا أملاه الحب والخوف، والحزن والاضطراب، حتى لقد خشي «قيصر» العظيم أن يلوذ بالهزيمة، إذا طال به موقف الوداع الأول؛ وهو بعد ذلك الرجل الذي تحدَّى العالم، وخلفه يرفج من تحت قدميه، غير أنه لم يلبث غير بعيد، حتى تذكر الحكمة التي اتخذها في حياته منارًا: «الأول دائمًا، وحيثما كنت.»

فاستعاد شجاعته، واستعلى على وحي المرأة مرة أخرى؛ فإن «قيصر» برغم ما عرف عنه من إباحية واستهتار، لم يكن يعد ذلك الشهواني الذي تخضعه غرائزه في كل الحالات، وتستعبده ملاذ وميوله في كل الظروف، ذلك بأن مزاجه كان يتحرق إلى الحركة، ويحنُّ إلى العمل ويميل إلى الصراع، وبخاصة في حالة كانت تدعوه حوادث السياسة في وطنه إلى المبادرة للعمل والجهاد.

- «أيرضيك أن يصبح «قيصر» الذي نظر إلى الناس نظرة أنهم القطعان المسوسة، أن يتزل بجبنه وقماونه إلى مرتبة أولئك الذين يشملهم احتقاره؟»

ولقد أخذ الحزن بمجامع «كليوطرا» لما أن بدا لها أن الزمن يكاد يستلبها «قيصر»، كيف تستطيع أن تبسط على «قيصر» سلطاتها، وتحوطه بيديها القويتين، وهو عنها بعيداً من ذا الذي سوف يحميها ويدفع عنها عوادي الأحداث ومطامع الطامعين؟ ومن ذا الذي سوف يمد لها يد العون لتخضع أهل مملكتها، إذا هم كشرروا لها عن أنياب كأمها المسنونة الزرق، أو شرعوا في وجهها راية العصيان بسواعد مفتولة، وأظافر محدودة؟

كانت «كليوطرا» قد أوشكت أن تصير أمًا، فاتخذت من ذلك الرباط الدموي الذي سوف يربطها بقيصر ذريعة استقوت بها عليه، فوعدها ألا يغادر مصر قبل أن ينشق أنفاس الحياة، حفيداً أنياس والزهرة، وسليل بيت بطلميوس: ذلك الذي غادر تلال مقدونيا في ركاب الإسكندر جندياً صغيراً، وانتهى به الحظ أن يصير فرعوناً للمصريين، وإلها للأغارقة.

أما «قيصر» فكان قد شغل ثانية عن رومية وأحزابها، وعن القيصرية وهمومها، بمقدم ذلك الذي ارتقب مقدمه، ولم يجُل في صدر «قيصر» من هم فكان أشد به أخذاً، أو أمعن وخزاً، من أن الأقدار قد ذرته فرداً، فلم يعقب من زوجاته الثلاث اللاتي تزوج منهن وريثاً، فلقد

أصيب من قبل بموت ابنته «يوليا»؛ ومنذ أن طوقها الأرض، لم تستجب له السماء بما يعرض عليه من فقدها، ولن سوف يُوصي قيصر بشروته الطائلة، وضياعه الواسعة التي يملكها في مقاطعة «امبريا»؟ ومن ذا الذي سوف يزود البشر بأعقاب سلالة «قيصر» القدسية، على توالي الأعصر والأحقاب؟ أيجود عليه الحظ بسلام يرثه ويرث من آل بطلميوس؟ أما الأماني التي منى بها «كليوبترا»، إن هي وهبته ذلك الوريث، فكانت ولا شك أشبه بالأحلام، وحبذا لو تصدق الأحلام.

لقد كان لأخته «أطيا» ولد، هو «أكتافيوس»، ولكنه كان يعلم حق العلم أن ابن أخته ضعيف التكوين، بدناً وعقلاً، ناعمُ النشأة، خوار القلب، غير صَبَّار، وليس المستقبل لخوار العزيمة، ولا للقلق المتردد، وإنما يتزل الناس على حكم القوي، وعند رأي الأحيل، ومن ذا الذي يستطيع أن يحظر أن «ابن السفاح» سوف لا يكون أجدر من «أكتافيوس» بالميراث العظيم الذي سيخلفه قيصر «أمبرور» رومية! ولو أن أخيلة استمدتها قيصر من نجم ضال في عرض السماوات، أو استخلصها من بطن كهف أجنته أغوار الأرض، لكانت أقرب إلى عقله وقلبه، من أن يتخيل أن سيف «أكتافيوس» سوف يحكم في خناق «قيصرون»، ابنه من «كليوبترا»، بعد دورة قصيرة من الزمان!

في مساء اليوم الذي عمد فيه قيصر إلى الرحيل، مستجيباً لإلحاح صحبه، بعد أن أمضهم طول الانتظار، تمخضت كليوبترا عن مولود.

كان غلاماً.

وشاءت الطبيعة أن يكون ذلك الغلام نسخة من أبيه، لا يختلف عنه في شيء إلا في صغر ملامح الطفولة، مقيسة على ملامح الرجولة، ولقد هزَّ الفرع قيصر تلك الهزة التي تملك الكهول، إذا جادت عليهم الأقدار بعقب، بعد أن تكون قد نبذتهم، وأطالت بهم النبذ، في بيداء العقم الجدية، وسرعان ما اختار له الاسم فدعاه «قيصرون»، فإن ذلك من حقه وملك يمينه، أما أن يرسم له المستقبل ويحدد تخومه، ويخط في عقله مصوراته، فليس من حقه في شيء، بل إن ذلك من حق الأقدار وحدها؛ ولا شريك لها فيه.

لقد قطع على نفسه عهداً أن يعترف بأبوته للغلام، عندما أقبل يودع كليوطرا قبيل الرحيل، في موقف جاوزت فيه الملكة حد اللوم إلى التفرير والوخز، توطئة للإفشاء بما تنطوي عليه حناياها: «اتخذني زوجة، قيصر اتخذني زوجة!»

ذلك بأن رأسها الصغير الجميل، ومن فوقه تاج آباتها العظام؛ كان قد أفعم بالأماين، وفاض بالآمال الجسام، آمال أشعرتها بأن نفسها أعظم من أن تقنع بحكم أرض الفراعنة وحدها، لقد فقدت أرض الفراعنة، بعد أن عاثت فيها الجنود الرومانية، رونقها وعظمتها وكرامتها. إن أرض الفراعنة لم تصبح أكثر من سوق تجاري؛ لهذا سبحت أحلامها نحو رومية، وكيف السبيل إليها؟ إنما سبيلها أن تقرن حظها في الدنيا بحظ رجل الإمبراطورية الرومانية؛ ذاك الذي إن شاء وضع رومية من فوق السماك، وإن شاء جلد بها الأرض.

لقد كَبُرَ هذا الأمر على «قيصر» أول شيء، بل أوسعهُ هُما وملاه
إكباراً، ففي القصر الرسمي في رومية «كلپورنيا» زوجته الشرعية، ترتقب
أوبته، ذلك في حين أن كليوطرا كانت زوجاً لأخيها، بطلميوس الثالث
عشر، تلبية لتقاليد أسرتها القديمة، ولكن ...

أية قيمة لمثل هذه المخطورات في نظر ثمرة مثل كليوطرا، في
صدرها قلب، وفي دماغها عقل، وفي نفسها شهوات؟ ما قيمة هذه
الاعتبارات في نظر شابة انحدرت من بيت ملكي عُرف في أميراته خاصة،
أن فيهن من افتراس النمرات، أثراً غير قليل؟

لقد وزنت كليوطرا الدنيا في يدها، فرأت أنها لن تتسع لمطامعها،
وأما تضيق عن أمانيتها ومطالبها، إذا هي قرنت ثروتها الطائلة التي تزودها
بها مصر، بعبقرية القائد الأوحده في العالم الروماني، ولا شك في أن ثروة
كليوطرا تؤيدها عبقرية قيصر، كفيلة بأن تذلل الصعاب، وتذك
العقبات.

على أن ما كان في إجماع كليوطرا من عظمة وجلال، وما كان في
مراميتها من طموح واستعلاء على كل ما في الدنيا الحافة بها، قد أفعم
قلب قيصر، فسكن إلى ذلك الوحي، وجنح إليه، ذلك بأنه كان يعلم
قدر ما في سكونه إلى ذلك الوحي من لذاذة تغمر قلب فاتنته الملكية،
وهناك أخذ قيصر من رومية هَمَّ عميق: أسمح رومية لقيصر أنه يركبها
مطية إلى مطامع كليوطرا؟ أضف إلى ذلك أن قانوناً صارماً من قوانين

«السناتو» الروماني، كان يحرم على النبلاء تحريمًا قاطعًا، الزواج من الأجنبيات!

– «أجل... ألسنت فوق القانون؟»

ولقد سمع قيصر هذه الكلمات تخرج من فم الفاتنة الإغريقية، كأنها رنات المثاني والأعواد، تحركها يدٌ صناع ذات مرانة؛ غير أن رجلًا أله في العالم الروماني، وأنزل فيه منزلة الأرباب، كان في استطاعه أن يقاوم بعض الشيء، مثل هذا الإغراء.

ودنت ساعة الوداع الأخيرة، فهزم قيصر، وضمَّ كليوبترا إلى صدره ضمة، إن لم تكن وعدًا صريحًا منه بتنفيذ ما أرادت، فإنها قد جعلتها تشعر بعد ذهاب عشيقها، بأن خطبتها قد عقدت على العالم أجمع؛ ومن فوق قمته العليا، رومية العظمى.

غير أن كليوبترا لم تكد تشعر بالوحدة، حتى انتكست أفكارها، وراحت تضرب في مهامه الحياة، مضطربة تختلج بالأوهام حينًا، وبالحقائق حينًا؛ راحت تتوهم «رومية» راكعة عند قدمي الإسكندرية، وأن الأتباع والأمراء يقتربون من عرشها زحفًا على الركب والبطون، ليلقوا عند قدميها بأسلحتهم خضوعًا، أو بمفاتيح أمصارهم إظهارًا للولاء؛ وأن ملايين من الخلائق البشرية أخذت تسجد أمامها، وأنهم جميعًا يرددون اسمها مقرونًا باسم قيصر، هاتفين بعظمتها، مولين بوجوههم نحو سدتها العليا، ابتغاء مطلب يرجى، أو معروف يسدى.

بمثل هذه الأحلام تحولت وحدة كليوبترا من صحراء قفر مجدبة، إلى جنات ظليلة من الأماني الحسان، وتغيرت الحياة في نظرها، حتى لقد وهمت أن أحلامها أقرب إلى التحقيق، من حاضرها المخزن في وحدتها الأليمة.

ما لبث قيصر «النائم» أن تحرر من السحر الذي سلط عليه من عيني الملكة المصرية السوداوين الناعمتين، حتى ارتد قيصر «اليقظ» الصافي البديهة، السريع الخاطر، القوي الحجة، الثابت النفس، لقد تحرك فيه خُلُقُ «النسر» المتوثب، القفاز إلى الغايات، الطفار إلى النهايات.

على أن الحالات التي قامت في العالم الروماني، قد اختلفت كل الاختلاف عما كانت عليه عندما انتصر «قيصر» في برية «فرساليا» على جيش «يومبيوموس» فإن فلول ذلك الجيش، وقد طال بها العهد على سماع اسم «قيصر»، وهو في عزلته بين ذراعي كليوبترا، قد جمعت كيدها، ونظمت صفوفها مرة أخرى، وما كان كيد أنصار «يومبيوموس» بالأمر الهين؛ فإن قواهم قد اكتنفته عن يمين وعن شمال، وأخذ شبح الحرب الأهلية يكشر عن أنيابه الزرق المحدودة، في ولايات الشرق الرومانية.

أيعود قيصر إلى رومية، والعدو يكتنفه، والحرب الأهلية تفرع بابه؟ لم يعتد قيصر من قبل أن يجمع العالم الروماني رجلين: قيصر؛ وعدوًا ي نابذه، لهذا يَمَّ شطر آسيا الصغرى، قبل أن يهبط أرض إيطاليا، وبدأ بتحطيم الأسطول الذي ختم به العدو مصب نهر «الْقُدُّس»

Cydnus؛ ثم تحرك عجلان على رأس جيش انتقاه من جلاوزة الحروب، القادرين على أن يأتوا في ساحة الحرب بمعجزات، وهاجم «كايس كشيوس» في «إفسوس» و«فرناقس» في «زيلا»؛ ثم ارتد مسرعاً صوب إفريقية، وانتصر في وقعة «نفسوس»، وبعد أن حصل على مبالغ عظيمة من المال، جمعها من الولاة الذين ملأهم منه الرعب، وأخذهم منه سورة الوجل، تلقاء بقاع من الأرض تضم بأمره إلى الولايات التي يحكمونها، عاد إلى رومية مثقلاً بالأسلاب، محفوفاً بمظاهر العظمة، ليتخذ من ذلك وسيلة إلى القضاء على نفوذ كل من حاول من الرومان أن يذكر اسم قيصر، بشيء يستشمن منه ربح الامتعاظ أو الارتياب.

ولقد أخذت رومية عدتها وأكملت زيتها لاستقبال «قيصر»، استقبالاً لم تشهده «الفياسكرا» **Via Sacra** من قبل⁸ فقد اجتاز قيصر شوارع المدينة وعلى رأسه أكاليل النصر، وفي ركابه عدد من الملوك أسارى مقرنين في الأصفاد، يمشون حفاة الأقدام حاسري الرءوس؛ وفي مقدمتهم «فرسنغيتور»؛ الذي قاد الثورة على رومية في بلاد الغال.

ومن حول مركبته؛ وقد كتبت عليها العبارة المعروفة: «أتيت فرأيت فغزوت»⁹ **Veni, vidi, vici**، التف شعب رومية يحيي بطله

⁸ أعظم شوارع رومية؛ وكان يبدأ من تل «كاليا» إلى تل «إسكلين» مخترباً قوس «طيطوس» ماراً بالفورم الروماني إلى الكاپتول. (معجم سميث للأسماء القديمة، النسخة المختصرة، ص ١٣٦، طبعة ١٨٦٧م).

⁹ رسالة أرسل بها قيصر إلى السناتو الروماني عقب انتصار له، فجرت مجرى الأمثال لإيجازها وعظيم دلالتها.

العظيم بحماسة الأطفال، أخذهم الفرح بعودة أبيهم الشفيق الحبوب، بعد طول الغيبة.

غير أن الأرسطوقراطيين لم يرقهم ما رأوا، ولم تحفل قلوبهم بتلك الهزات المرححة التي حركت الجماهير، ولكن قيصر لم يأبه بهم، ذلك بأنه مع الشعب وإلى الشعب ومن الشعب وبالشعب، كان ديمقراطيًا خالص العقيدة في الديمقراطية، بدأ حياته بطلب إصلاح حال الجماهير، وترقية مستواهم الاجتماعي، بيد أنه كان يعلم ما في الجماهير من قدرة على التحول والانقلاب من حال إلى حال، والانتقال من أحد طرفي النقيض إلى الطرف الآخر، فلم يعن في إغضاب الأرسطوقراطيين، ولم يفرط في إظهار ميوله الشعبية، إفراط الحمقى من الزعماء.

لقد علم، وعلم يحق، أن المنطق والعقل، لن يكونا أشد خسارًا وضيعة، منهما إذا هما انزلقا ليخاطبا الجماهير؛ فأخذهم بأنواع المسرات، وضروب اللهو، فأمر بأن تقام الزينة، وأن تمد الموائد، وتقام معالم الأفراح في أنحاء رومية.

كذلك قد علم ما في البر بشعب فقير من أثر يملك الأرواح والعقول والخواطر؛ فأمر بالميرة والغلال والزيت والخمور، فوزعت على الفقراء بغير حساب.

وأقيمت في الملاعب حفلات عظيمة، حتى لقد غصت على رحابتها بالخلاتق، ينظرون في تشوق إلى عراك المجالدين، ويمتعون أنظارهم

بمراى الدماء المهراقة من الأءسام البشرية ومن الءواناء، وىرقبون كىف تفارق الأرواح الأبدان.

وظلّت الزىنة أربعمن يومًا متوالىة، فكنت لا أسمع من كلمة ىذكر بها رومانى، اللهم إلاء اسم «قىصر» وءده، منعوئًا بأنه «العظم النابه»، أو «القاهر»، أو «الأب المءوب لرومىة العظمى».

ولقد ءمره الرومانىون بالألقاب، وءصوه بأسمى التءارىف، فقد كان قنصلًا، ثم صار ءاكمًا بأمره (ءكناورًا) لعشر سنن، وءلقى من الشعب لقب «ءءامى الأعظم» لرومىة ومءلكاءها، وءُصّ فى «السناوء» بمكان أعلى من كل الأمكنة الأءر، ونقش على ءمناله الذى أقم فى معبد «ىوپیئر» كلمة «إله» بءروف بارزة.

ولكن الأمور فى الإسكندرىة لم ءءر على وءىرة ىطمئن لها قلب كلىوبطرا، أو ءرضى ءىال قىصر، فإنه بالرءم من الءند الذى ءلفه قىصر فىها بقاءة «كلفىنوس» لىءافظ على النظام والأمن، ءمءضء الأىام عن عدة فوراء، أقضء مضءع الملكة، وءشء على أءلامها بءشاوة من القلق والإءفاق.

قىل، فى السر مرءة، وفى العلىن مراء، إن الملكة مالأء الأءانب، وألقت بنفسها فى أءضان الءءلاء، وأها رضىء أن ءكون أمةً لرجل رومانى، وأها فوق هذا وءاك، امءهءت شرف الءولة، بأن أعلنت فى ءىر ءفاء، أنه والء ابنها.

أيجول في خاطر كليوبطرا أن تؤمر على المصريين في المستقبل ملكًا،
ليس منهم في شيء؟

على أن مثل هذه التهم، لم تكن لتهم إنسانًا فيه من الجرأة والإقدام
قدرًا يحفره على أن يهملها أو يضرب بها عرض الأفق الأوسع، غير أن
كليوبطرا في ذلك الوقت، وهي في حدود العشرين من عمرها، لم تكن
قد أصبحت بعد تلك الملكة الصلبة المقدامة الشديدة المراس، التي تقود
الجحافل الجرارة إلى ساحة الحرب، وتكتم أنفاس الرأي العام، بنظرة
غضب، أو لفظة احتقار.

نعم، كانت في حدود العشرين من عمرها الحافل بالأحداث،
شديدة الحساسية، رقيقة العاطفة، وكان شبح الثورة يخيفها، بل يذهب
بالنوم عن جفونها؛ فمضت مهزوزة القلب، نائرة الأعصاب، تتوقع بين
آن وآخر أن يكون، ما ليس في منطق الحوادث من دليل، على أنه سوف
يكون.

أما حاميتها وراؤها إلى العرش، فلم يكن بعد إلى جنبها، يدفع عنها
شر النفوس، وفتنة الأطماع، أفي مكنتها أن تتغلب دومًا على تلك
النظرات الجافية التي يرميها بها ذوو الفتنة، والنذر التي كانت تفرع
سمعها، والفورات التي لا يطفئها إلا الدماء؟

لقد كان لها حتى الآن من نفوذ قيصر، بالرغم عن غيبتها، عضدًا
أدرعت به، واحتمت من خلفه، ولكن إلى أي حد تتطور الحوادث، إذا

ما ثبت في روع الثوار أن قيصر قد هجرها، وأن ليس في يدها من قوة غير عدتها الذاتية؟ من ذا الذي يحول بين هؤلاء وبين خيال يجول في أدمغتهم، أو مطمع يدور في صدورهم؟

عامّة ذا لم يكن شيئاً مذكوراً، إلى جانب ما شاع عن قيصر من أحاديث، فقد قيل: إنه فتن، في أثناء مغزاته الإفريقية، بالملكة «أونونيا»! أذلك ممكن؟ أيقع هذا بعد فترة وجيزة من إفلاته من بين ذراعيها، حيث أقسم على أن يظل لها الحياة وفيّاً، وأن يمضي لها أميناً؟

ما أضعف المرأة، على قوتها، إذا ما أصبح رجلها الذي تحبه بعيداً عن أن تحوطه بتلك الحلقة الحديدية! التي هي ذراعاها!

على أن ما بين ذراعيها وقيصر، من فجاج الأرض، ليس مما يتعذر اجتيازه؛ وما الذي يحول دون ذهابها إليه، إذا كان قيصر ما يزال لها وفيّاً محبّاً، وإذا كان ما ينفك يحس فراغاً عظيماً في جو حياته، بقدر ما بينها وبينه من نزوح الدار وبعد المزار؛ على ما كان يبثها في كتبه من نجوى؟

أما رغبتها في أن تحكم الصلة التي تربطها بقيصر، وأن تزيد أواصرها قوة، فقد كان يشوبها شعور بالخوف من رومية! نعم من رومية: عدوتها التقليدية، تلك المدينة الفتية، التي لولاها لتربعت الإسكندرية على هام الأمم، ولأصبحت سيدها الأرض كلها، بل لأضحت الدرّة الصماء في تاج الدنيا، نعم رومية، عدوتها التقليدية؛ تلك التي لن تغمض عنها عين كليوباترا، أو تفغر فاهها الواسع العميق، لتبتلع الوادي الأقدس، وتضمه

إلى ما ابتلعت من رحاب الشرق الفسيح، ولكنها برغم هذا كله، كتبت إلى قيصر تستوحيه رأيه في زيارة رومية.

بعد أن غاب عنها قيصر حولًا كاملًا، تلقت منه رسائل يجدد لها فيها عهد الحب والوفاء، أما إذا كان قد فتن بعض الشيء «بأنونيا» ملكة «نوميديا»؛ فإنما هي فتنة عابرة، كسحابة الصيف، أو هو اتخذها أهوة يروح بها عن نفسه، بعض ما كان يشعر به من حزّ الذكريات القديمة.

أيجوز لرجل مثل «قيصر»، أثقلته المسؤوليات، وأنقضت ظهره الواجبات، أن يدلف مع الحب إلى تلك الأغوار التي تصرفه عن أمور رومية، وفي يدها الدنيا بأسرها؟

سواء أجاز هذا أم لم يجز، فالواقع أن «قيصر» كان دائم التفكير في ليالي قصر «البروخيوم» مأخوذًا بدوافع لم يكن له في صدره عن خياله من حول ولا طول، كان يحلم بالإسكندرية، وبالساعات التي قضها في حضن النيل الهادئ، وقد همدت ثورات نفسه، ونعست أعصابه المضطربة، فأغفت عيناه الوقادتان، وفيهما مرأى النهر الأقدس، يوحى إليه بالأحلام الشهية.

لقد تردد قيصر شيئًا قليلًا، قبل أن يبيح للملكة زيارة رومية، أما أن تزور ملكة مصر، عاصمة العالم الروماني، فذلك أمر جسيم، ليس لقيصر أن يقضي فيه بحكم ظهر الغيب، ومن غير أناة، وطول تفكير، ولقد رأى بثاقب بصيرته أن السبيل ينبغي أن تمهد، قبل أن تطأ قدما

كليوبطرا عاصمة الدنيا، أما أكبر العقبات التي كانت تقوم في وجه قيصر، فعلمه بكراهية الرومان الرئيسية، لكل من يحمل من فوق رأسه تاجًا، وربما لا نخطئ إذا تصورنا أن أهل رومية، كانوا يرون في هبوط أصحاب التيجان أرضها عامل هدام يضرب في أصول الحريات الرومانية، اللهم إلا أن يهبطوها أسارى مقرنين في الأصفاد، أضف إلى ذلك أن كليوبطرا كانت تُرمقُ في رومية بأعين تفيض بالارتياب والحدق والغضب.

كان الرومان يعرفون فيها الطمع الأشعبي، غير ناسين ما بسطت على قيصر من سلطان، وما سلطت عليه من سحر، وما كان «قيصر» لينسى أن أهل رومية كانوا قد جنحوا إلى الارتياب في أمره، والتشكك في نيته، أما وقد استطاع أن يحول ريبهم إلى ثقة بعد انتصاراته في آسيا وإفريقية، وإخماده الثورات التي هددت أم الدنيا، فإن هذه الريبة لا بد من أن تُوجه إلى كليوبطرا، مجددة بالذكريات التي ثبتت في عقليتهم من التجاريب الأولى.

إن المرأة التي استطاعت أن تحبس قيصر عن العودة إلى وطنه طوال تلك الفترة، وصرفته عن التفكير في أولئك الذين لهم فيه الحق الأول، لا بد من أن تكون الطبيعة قد هيأها بقوى تمكنها من محو العرف الإنساني، لتستن للإنسانية عرفاً يرضيها.

وبعد، أمن الحكمة أن يحمل «قيصر» فاتنته الملكية إلى مثل هذا الجو، وأن يترها مثل هذا المتزل، وأن يقذف بها في مثل هذا الأتون المستعر من الأفكار والخيالات والأوهام؟

لقد سأل قيصر نفسه: «أيقوى على أن يضع كليوطرا موضعاً تُقابل فيه بهتاف العداء؟»

«أيستطيع أن يغمض عينه عن أعدائه الذين سوف يستغلون الموقف قائلين: لو لم تأت كليوطرا لذهب قيصر إليها، نابذاً رومية ومن فيها؟»

ومضت الأيام تترى، وقيصر في بلباله، وكليوطرا في ألمها ووحدها مهتاجة قلقة، تمر بها الساعات طويلة ممضة حزينة.

إلام تنتظر كليوطرا؟ وعلام يتوقف رحيلها؟ أعلى إرادة قيصر؟ كلا! فإن لها لإرادة أين منها إرادة العاهل الأعظم، وإن لها لذكاء أين منه عبقرية زعيم الدنيا! لهذا صممت كليوطرا على أن تقبط رومية بمحض إرادتها مدعية أن نصوص عهدها السياسي مع رومية، في حاجة إلى أن تُحدد، وأن تفسر تفسيراً فاصلاً، لهذا تتنازل كليوطرا بزيارة رومية لتناقش في نصوص العهد التي ما تزال موضع خلاف، يُخشى معه، أن تكدر العلاقات بين مصر والجمهورية الرومانية!

أمن أجل أن تنال مصر لقب «حليفة الجمهورية» **Socius Republicae** تشق كليوطرا عباب بحر الروم؟ لم يكن هنالك من

حاجة لأن تذهب الملكة بنفسها إلى رومية لتنال حظوة الخلف معها! وإلا فقيم كان السفراء؟ غير أن «السناتو» الروماني، وقد أخذه الزهو بأن تمثل أمامه ملكة مصر، صدرَ إليها دعوة رسمية، يدعوها إلى زيارة رومية.

ها هي ذي كليوبترا قد طوت «السناتو» الروماني في صدرها، كما طوت من قبل عاهلهم الأكبر، أما وقد دعته رومية، فقيم الانتظار؟

كانت شمس يونية مشرقة وضاءة؛ وقد دبت الحياة في أرجاء «الفوروم»¹⁰ Forum بمدينة رومية، وغصت شرفات منازلها بالناس، وازدحمت الشوارع والأسواق بشقى الخلائق البشرية، على اختلاف أجناسهم وألوانهم، كان يخيل للرائي أن رومية إنما لبست هذه الحلة الزاهية إحياء لعيد، أو تخليداً لذكرى من ذكريات المدينة الخالدة؛ على أن خليقة الجمهور الروماني، في ذلك اليوم، لم تكن خليقة العطف والحب، بل خليقة المناوأة والتحدي.

ولقد راجت في تلك الآونة أقوال، وشاعت أفاصيص، عن تلك الزائرة التي فرغت رومية ولداناً وشيياً، فتيات وفتياناً، لاخطاف نظرة منها، قيل بأنها غانية، ترفل في الدمقس، وتحبُّ في الديجاج، وتغرق في الأحجار الكريمة والذهب الخالص، وقيل: إنها ساحرة، لن يفلت من شرها إنسان اتصل بها، أو كان له بها علاقة ما.

¹⁰ الساحة الرئيسية في مدينة رومية. وكانت تتخذ موضعاً لإقامة العدل بين الناس أو عقد المجتمعات العامة.

أما الخواص، فكانوا على أن كليوطرا ليست إلا ملكة من ملكات الشرق، غير أنها الملكة التي لم يكن الشعب الروماني في صدره من حقد لإنسان، بقدر ما أكنَّ لها.

وتقدم ركبها عدد من العبيد السود يلبسون أقراطاً من ذهب، وبينهم الخصيان؛ فكانوا يشتملون بأردية طويلة، كتلك التي يلبسها النساء، أما الوزراء وصدور الدولة، فقد لبسوا على رعوسهم شعوراً مستعارة؛ ذلك في حين أن الجند كانوا نصف عراة، وعلى رعوسهم ما يشبه الملامس¹¹ *Antennae*، فلاحوا كأهم حشرات كبيرة الأجسام.

ولما أن بدأ ذلك الموكب يشق قلب رومية، قوبل بعاصفة من الضحك والسخرية، أما الاستهزاء فكان من نصيب العلماء الفلكيين، بقبعاتهم الطويلة، ذوات القمم المدببة، والكهنة بجلود النمر التي ارتدوها، وبلغ الاستخفاف بأهل رومية مبلغه الأخير، لما أن وقعت أنظارهم على تلك الأعلام الكبيرة، وقد رسم عليها صور مقدسة! فما تلك الثعالب؟ وما هذه الصقور؟ وعلى أي شيء تدل تلك البقرات السَّمان؟ أهذه مُنلٌ من آلهة؟ لا جرم أن الذوق الروماني كان يأنف من النظر إلى مثل هذه الرموز، تُتخذُ لآلهة وإلهات.

غير أن أهل رومية لا يلبثون على هذا غير قليل، حتى يلوح لهم الهودج الملكي، غارقاً في بحر لحي من الحراب المشرعة، والسيوف الباترة،

¹¹ للحشرات أعضاء في مقدم الرأس تستعملها للمس وتسمى *Antennae* فسميتها الملامس هنا تخفيفاً، ويدعوها البعض قرون الاستشعار، ولا أوافق على هذا الاستعمال.

فيسود الصمت العميق، كأن قبراً أجنَّ أهل رومية أجمعين، عندما تقع أنظارهم على كليوبطرا، ومن فوق ذراعيها ولدها «قيصرون».

كم ذا سبَّ لها «قيصرون» هذا من قلق، وكم ذا بعث في نفسها من مفضٍ، في قصر الإسكندرية؟ همها بمستقبله، وهمها بأبيه!

أما في رومية فقد ارتقت كليوبطرا من ابتسامته الساذجة، ومن قربه في الشبه بقيصر، أن يكون مبعث عاطفة تنطلق في صدور الرومان بما يدينها خطوة من غرضها الخطير، ولم يجب في ذلك نظر كليوبطرا، فإن قيصر في ذلك الوقت كان معبود رومية، وما عمل من عمل، أو أتى من شيء، إلا انتحل له الشعب الروماني منطلقاً يؤيده، أما إذا كانت بعض الصدور تغلي بالحقد وتنفث بالغضب، أو كانت بعض الرؤوس تحتشد بشقى النقود، فإنها لم تقو على أن تجهر بشيء، أو أن توجه إلى الملكة الشرقية بكلمة، يشعر معها قيصر، أن فيها امتهاناً لعزته، أو افتياتاً على جبروته.

ومهما يكن من أمر تلك المسحة السحرية التي مسحت بها الطبيعة ملامح كليوبطرا؛ فإنها لم ترتقب أن ترضي بجمالها شعباً تضخمت في رأسه فكرة السيادة على الدنيا، فنظر إلى بقية الشعوب نظرة ألما خولُّ له وإماء، غير أن كليوبطرا لم تلبث أن أذكت في الرومان روح الغيرة! بشعرها الذهبي المموج؛ وعينيها الدعجاوين المكحولتين فطرة بما يعجز الفن عن محاكاته، وأهداها الطويلة المعكوسة على جفونها، وشفتيها العنابتين، وقميصها الشفاف الزاهي، وقد برز نهداها من خلاله، كأنهما

حق عاج، في صفحة من المرمر الصافي، أما تجاعيد شعرها العجيبة، فقد أطلَّ من ثيابها الصلُّ المصري، يأخذ بعينين متقدتين، رومية والرومان.

ولكن قيصر كان قد فرض على أهل رومية أن يُحيوا الزائرة الملكية، فما وسعهم إلا أن يحيوا قيصرون، زاعمين أن إهابه الأشقر الجميل، وحركاته الخاطفة السريعة، النامة عن الذكاء والتوقد، إنما هي الدليل الكافي على انحداره من سلالة تمت إلى الآلهة بأسباب.

من أجل أن لا يداخل أحدًا من الرومان شك في ما ينبغي أن تُخص به كليوبترا وولدها من الاحترام والكرامة، أنزلها قيصر في صرحه العظيم الذي أقامه على شاطئ نهر التيبير **Tiber** الأيسر، مشرفًا على الحدائق الغناء الممتدة على سفح أليانكولوم **Janiculum** تلك الحدائق التي أوصى أن تكون ملكًا للشعب من بعده، وأنها هبةٌ ذكرها السواد الروماني غداة مقتله، فراح يسجد ذارفًا الدمع أمام شملته **Toga** الملطخة بدمائه الزكية.

ولما أن رأت كليوبترا أنها استقرت ضيفًا كريمًا على الأمة الرومانية، شملها شعور الرضى، وأفعمها إحساس الفرح، الذي يأخذ أولئك الذين غامروا وجاهدوا في سبيل غاية، فأفلحوا ونجحوا، فإنها على الرغم من كل العقبات التي قامت في سبيلها، خطت خطوة موفقة نحو غرضها الخفي الخطير.

غير أن مرمها الأسمى الذي تحاول أن تكمل ببلوغه انتصارها الأخير، كان ما يزال طيَّ الغيب، وكان عليها أن تجاهد في سبيله، فإن من الضروري لها، لكي تنجح، أن تربط قيصر بالزواج؛ ذلك الرباط الذي يعقد من فوق رأسها تاجين: تاج الفراعنة، وتاج الرومان.

وإن بنتًا من بنات حواء، لها مواهب كليوبطرا السامية، وفيها عبقريتها الأخاذة في استخدام مواهبها النسوية ذريعة إلى تحقيق أحلامها، لن تتصور موقفًا أكثر مواءمة من موقفها في قلب رومية، وبين ذراعها قيصر، وفي حضنها قيصرون، ولده الأوحده.

بيد أن رومية، عندما هبطتها كليوبطرا، لم تعد بعد ذلك المعقل الحصين الذي تحتمي فيه التقاليد، وتقدّس فيه الشرائع القديمة، فإن تلك التقاليد التي قامت عليها عظمة الجمهورية الرومانية، ومنها استمد الرومان تلك القوى التي هزت الدنيا بأسرها، كانت قد أخذت في الزوال والفاء، فإن الدين القديم كان في طور انحلال، وبالرغم من أن الدين كان معترفًا به في الدولة، فإن الملاحدة كانوا كثيرين؛ وبخاصة بين الأرستقراطيين، وكذلك الشعب؛ فإنه إن أظهر بعض الخوف من آلهته، وأبدى لهم بعض الاحترام، فإن هذا لم يصدّ روماني ذلك العصر عن أن يفسقوا عن شرائع آلهتهم، ومن تحطيم هياكلهم أو تدنيسها، إذا ما ملكتهم سورة غضب، أو هبوا ثائرين، وكفى بقصة ذلك الجندي المستهتر دليلًا، فإنه مضى يفاخر بأنه سرق تمثال الآلهة «ديانا» Diana

وأنه اجتنى بسرقة ثروته، من غير أن يرى في ذلك استخفافاً بأهله ولا دين، ومن غير أن يرى الشعب الروماني في ذلك تدنيًا لحرماته.

أما تقديس الزوجية، فقد أصبح تقليدًا من تقاليد الماضي العتيقة، فكنت ترى كل يوم وتسمع في كل آونة، أن عضوًا من «السناتو»، أو «قنصلًا»، أو موظفًا كبيرًا، أو شيخًا مبجلًا، أو سيدًا محترمًا، قد سَرَحَ زوجته بالطلاق الأبدي لأنفه سبب، أو بدعوى لا دليل عليها، ولقد امتدت الاستهانة بهذه التقاليد حتى إن «قيقرون» الخطيب المشهور، بالرغم مما عرف عنه من رضي الأخلاق وسماحة النفس، طلق زوجته «ترنتيا»، بعد أن عاشها ثلاثين سنة، وشيعها بكلماتٍ قاسية قائلاً: «اذهي من هنا، واحلمي معك كل ما هو ملك لك.» ذلك بأنه رغب في أن تحل محلها فتاة أصغر منها سنًا، وأكثر جمالًا.

لقد أصبحت الاستهانة بالأخلاق والعرف والشرائع، تلك الأصول التي سيطرت على النظام الروماني من قبل، طابع عصر قيصر في رومية، بل أضحت السرطان المزمّن الذي تشعبت عقده وجذوره في صميم المجتمع الروماني، ولقد ذاعت الفضائح الجسيمة والمنكرات الضخام، ذلك بأن الثروة التي حصلت عليها رومية، إثر المغازي الكبيرة والحروب الموفقة التي قاد قيصر جحافلها، كانت قد أبعدت الرومان عن فكرة الحياة البسيطة التي عكف عليها آباؤهم من قبل، وأبطرهم النعمة، فراحوا ينغمسون في الترف، وينتهبون المملذات، وعلى الجملة أصبح

الذهب معبود رومية الأوحده، وإلهها القاهر القادر على كل شيء، سبحانه وله الحمد.

كان الذهب في رومية، قبل ذلك العهد، من الأشياء النادرة، فلا تراه إلا في المعابد تُزين به بعض أجزائها، أما في عصر قيصر، فقد دخل المقاصير الخاصة، والأهياء العامة، وزين به الفراش والأثاث، ونقشت به الأسقف والجدران؛ وإن شئت فقل: إن كل شيء في بيوت أهل رومية، من الطبقات العليا، كان يرهقه الذهب، ويحليه التبر الخالص.

ولقد أراد «كاتو» **Cato** وهو من أعظم رجالهم، أن يحتج على ما انغمس فيه قومه من ترف، وما تطوح فيه المترفون من مفاسد، فمشى في أسواق رومية عاري القدمين، وعليه شملة ممزقة، ولكن من ذا الذي يتبع «كاتو» في عالم الذهب معبوده، والفسق شريعته؟ ولقد استهزئ به، واستضحك منه، وهو يمشي على تلك الهيئة الغريبة، إلى جانب العجلات المموهة بالذهب، تجرها خيل مطهمة جيداً، من أجل ما أنتج الشرق من سلالات: أصيلة ومولدة.

أما النساء فكنَّ قد نسين شرائع رومية القديمة، فرحن يسرفن على ملبسهن إسراف الحمق والتبذير، فمن حول أذرعهن، ومن فوق جدائل شعورهن، وفي أرجلهن ومناطقهن، حلي ذهبية من صنع أمهر أهل الفن، تغطيهن من مفرق الرأس إلى أخص القدم، وفي أعناقهن تدلت صنوف الجواهر، ومنها اللآلي الثمينة النادرة، التي تنافس أغنياء الرومان في الحصول عليها من بلاد الهند خاصة، فحملتها قوافل التجار من تلك

الأثماء القصية البعيدة تلقاء بدرات من المال، لا يتصورها عقل، ولا يدركها خيال.

وكانت اللوائم التي تعد على موائد الأثرياء من النبلاء، تحاكي تلك التي أقامها «لوكلوس»، فالصحاف من الفضة الخالصة، والكنوس من الذهب المنقوش، وفراش الموائد من الديقاج الأرجواني الثمين؛ وعلى الجملة فقد حاكت ولائمهم، ولائم ملوك الشرق، جمالاً وعظمة، أما تقديس الفضائل المدنية السامية، فضائل القصد والاعتدال ونبات الخلق والصبر والاحتمال، تلك التي أثرت عن رومية في نشأتها الأولى، فلم تصح أكثر من أساطير تروى عن الماضي، وأحاديث ضاع زمانها، وانطوى أوامها.

مع هذا لا ينبغي أن يغيب عنا أن نظام الجماعة القديم في رومية، إن كان قد أخذ يخلي الطريق لعصر جديد، نقصه الكثير من مجد الأسلاف الأقدمين، فلا شبهة، في أن مسرات الحياة ومباهجها قد كسيت روحاً مادية، غمرت الناس بحالات لم يألّفوها من قبل، فإن ثقافة العقل، وحب الفنون، لم يبلغا في عصر من عصور رومية السالفة، مبلغها في عهد «قيصر»، ناهيك بالفلسفة والحفر وتعلم اللغات، وبخاصة الإغريقية، تلك التي كان يفخر ناهو رومية بإتقانها قراءة وكتابة، كل أولئك، أشياء قد تجدد ميلادها في رومية قيصر.

لم تكن لتشهد ناشئاً من النبلاء لا يفخر بأنه أتم ثقافته في «رودس» أو «أفلونيا»، أو بخاصة في أثينا، ولقد كان للنظريات والمبادئ التي

يتلقونها خطر الذبوع والتقبل في دوائر الأدب، وحلقات العلم، وذاع الأدب وتعددت ألوانه، وكثرت ضروبه وصوره، حتى لقد عمَّ التأدب طبقات من الشعب كثيرة؛ وكان الأدب من قبل، وقفًا على فئة قليلة، دعاها الرومانيون «أهل الأدب»، وقد نقول على الجملة: إن الأدب والعلم، أصبحا طابع ذلك العصر المجيد.

ولا تنس، إلى جانب هذا، أن حماية الأدب والفلسفة والفن، وشمولها بالرعاية، كان من حسنات ذلك العصر الفذ في تاريخ العصور، ففي قصر كل نبيل فيلسوف، أو عالم بحاثة، يتشرف ذلك النبيل بأنه تحت سقفه، وفي حمايته، يدلك على هذا أن أهل رومية كانوا يرون أنه من أكبر الشرف أن يتزل «فرجيل» ضيفًا على أحدهم، وكان قد هبط رومية قادمًا من «سنتو» لينشد في السهرات مقطوعاته الريفية، أو يسمعون تلك المقطوعات ينشدها «هوراس»، وكان ما يزال شابًا في العشرين، موقعة على الأوتار؛ ولقد تبددت تلك الأنغام مع الأثير، ولكن ذكرها قد بقيت، لتتحدّر إلينا مع العصور، فتكون في عصرنا هذا من أخص الذكريات، وجملة القول، أن رومية ما رأت من شيء في عصر قيصر، فقدسته وشرفته، واستعلت به على كل الأرضيات، بقدر ما قدست العلم، وشرفت الفلسفة، وأعلت الأدب.

أما «كليوبطرا»، فقد أدركت بديئة، مقدار ما تستطيع، بمواهبها ومفاتها، أن تغمر به جمعية متمدينة، تتطلع إلى المتعة بكل جديد مبتكر، أو قديم خلاب، ولا يبعد أن تكون كليوبطرا وحدها، دون كل نساء

الحلقة التي احتكت بها، قد استطاعت أن تسحر علماء رومية وأدباءها، فأَمَّ قصرها فلاسفة من الأغارقة، وأدباء من الرومان، لم تقو فيهم الفطرة على أن تقاوم وحي الملكة، وكأنا جاذبية الأرض قد تركزت حيث كانت، وكأنا فتنة الدنيا قد تجمعت حيث نزلت، فكانت القطب المغنطيسي، في عالم اتجه إليها، وأحاط بها.

لقد خصت كليوطرا بتلك الموهبة العليا السامية، موهبة الإدراك، ولقد حلَّ في جسمانها روح تضاءلت أمامه عظيما رومية وخليعاتها على السواء، وكن لا يعكفن على غير اللغو وكلام أهل الفراغ، أو يعرفن من شيء، إلا لذائد الجسم، دون لذائد النفس والروح، وهنالك عرفت كليوطرا أن النجاح حليفها، وأن غرضها يخطو إليها، بعد أن كانت تخطو إليه.

في البهو الأعظم الذي التفت من حوله أجنحة القصر الذي أنزها فيه قيصر، وقد أشرفت كليوطرا على تنسيقه بما عرف فيها من سمو الذوق ورجاحة الفن، كانت الملكة واسطة العقد في حلقة جمعت رجالات رومية من أصدقاء قيصر، يقضون هنيهات في ظلها، بل في ظل الحكمة والعلم والأدب والفتنة، لينسوا بقربها في العشية، بؤس ما لقوا من مهام رومية في النهار.

ولكن قيصر كان يقضي تلك الليالي قلقاً حائر النفس لا لأن رومية قد هددتها الأعداء، ولا لأن الثورات تفرع باهما، وإنما انتظاراً

للساعة التي يضمها فيها إلى صدره، ناشقاً عقب ذلك الجسم الرباني،
ويحس ضربات قلبها تدق وقلبه، دقات ما تتفاوت ثوانيتها.

هنالك في تلك الحلقة الفريدة، كنت تأنس تريبونوس،
وليفيدوس، وسليبيشيوس روفس، وقوريون، وغيرهم من رجال الملأ
الروماني، الممتازين بالعبقرية، المعروفين بالتفرد في سلامة الذوق، ورفاهة
الحس، ودقة الملاحظة، وسمو الفكرة، والإحاطة الشاملة بآداب العالم
القديم؛ فإذا تحدثوا فإنما يتحدثون عن مشاكل الساعة، وأزمات
القيصرية؛ تحدثوا في الوسائل التي تمكنهم من إنجاز وعودهم للجند،
وإلغاء الديون، وإنقاذ الإيجار عن الأرض المزروعة؛ إلى غير ذلك من
معضلات عالم أصغر، حكم وتحكم في عالم أكبر.

في كل ما تناوله الحديث من أحزان رومية ومسراتها، تفردت
الملكة الصغيرة بالرأي الفرد، والحكم القاطع، والمقال الفصل، والحكمة
البالغة، والموعظة الحسنة.

ما كان لرجل من هؤلاء الأفاضل أن يتصور أن هذه المرأة التي ما
حضرت مجلسهم إلا لتضفي عليه من جمالها، وتسبغ عليه من دلالها،
وتصبغه بصبغة الطراوة التي يأنس فيها المكودون المجهدون راحة تشمل
العقل وتغمر القلب، ستكون في حلقتهم الفيصل الذي يدلي بالرأي؛ فلا
يخطئ مقاتل المصاعب والمشكلات.

وأيةً من مظاهر الطبيعة تكون بألباب هؤلاء الجلاوزة أشد أخذًا،
من أن يشهدوا نقاش الفاتنة المصرية مع المؤرخ العظيم «سالوست»،
وكانت قد درست كتبه وأحاطت بمذهبه في علم النفس، فأخذت تعصر
المؤرخ الفيلسوف عصرًا، وتشدد عليه الخناق تشديدًا؟

لقد كانت نقودها على ما كتب «سالوست» مربكة فائضة
بالأسئلة المسكتة؛ تلك التي لن تجد من جواب لها، أبلغ من السكوت
عليها.

وكان من مفاخر الخطيب المفوه «أسينيوس فوليون» أن يلقي إليها
بأصول خطبه، لينال حظوة نقدها، ثم بأشعاره التهكمية التي كان
يصوغها على لسان راعٍ، مُنحياً بما على الأوهام التي شاعت بين أهل
رومية في زمانه.

وما كلمها من رجل، أديب أو شاعر، حكيم أو مشرع، فيلسوف
أو كاتب، إلا وآنس في براهينها قوة العقل المتدفق الفيّاض، والعظمة
القائمة على العبقرية، قهبها الطبيعة بغير حساب، لمن تشاء من أبناء الفناء؛
من أبناء الطين والتراب.

كان في رومية عالم من علماء الآثار اسمه «أتيكوس»، استرعت
أعماله ومكتشفاته انتباه كليوبطرا، فكانت تقبل عليه إقبال الحب للعلم
الهائم بالمعرفة، وتقضي ساعات طوال تفحص عن جمال الفن في قطعة من
النسيج الفارسي، أو تحفة من العاج صقلها عامل صيني صبور، أو نقش

بارز نقل إلى رومية من معبد «إفسوس»، عامة ذا، إن دل على شيء،
فإنما يدل على متجه عقلي سمي إلى غايات الفن العليا، وتطلع إلى
الاستعلاء على ما بلغ أهل الأرض جميعاً من مراقبي الأدب والفنون.

ومن ذا الذي لا يؤخذ إخذة العجب والانبهار، إذا ما رأى تلك
الفتاة الصغيرة تفيض بوحى العلم على خريطة السماء، وقد تجمّع من
حولها علماء رومية في ندوة علمية ليصلحوا التقويم الروماني؛ أو
يستمعون إلى كلامها فيما انتاب وضع الدب الأكبر وكوكبة ذات
الكرسي، وكوكبة الجبار، من تغير الوضع حول النجم القطبي؟

لقد كانت في كل شيء بمثابة الظاهرة الخارقة في تجانس الطبيعة،
كانت من تلك المخلوقات التي كثيراً ما يقع عليهم اختيار الآلهة،
ليكونوا في الأرض، مثلاً لهم وبرهاناً عليهم.

حدث في تلك الفترة أن قدّم لها شاب جميل الطلعة، قوي
الأصلاب، ذائع الصيت، فائض القوة، عقلاً وبدناً، كان ذلك الشاب قد
هبط رومية قافلاً إليها من إسبانيا، وعلى رأسه أكاليل الغار التي كان من
حقه أن يُتوج بها، جزاء ما أبلى في مواقع «مُندا»، ومن ورائه أثقال من
الأسلاب، كان قد اعتلى ذروة المجد؛ فنبه ذكره، وعلا صيته، حتى عقد
المجد من فوق هامته تاجاً من العظمة والفخار، أما قوامه المعتدل،
وعضلاته المجدولة جدل الحديد الصلب، وضحكته «الباكوسية» التي
كانت تشيع في كل قسمات وجهه الوسيم، وتفانيه في البذخ والإسراف،
وصورته الأخاذة بقامته المديدة، واتساق تركيبه الجسماني، فكانت صورة

مما تخيل الرومان من «هركوليس» الجد الأول لذلك الشاب، المملوء
فذاذة وقدرة.

أتعرف من كان ذلك الشاب؟ هو بعينه «مرك أنطونيوس».

بالرغم من أن «أنطونيوس» كان واقعاً في شباك الخليعة الرومانية
«فوثيرس» فإن جمال كليوباترا قد أخذه بالناصية، وحل من قلبه في
الصميم، ولولا ما كان من احترامه لقيصر، وتقديسه له، إذن لبثها
الهوى، وشكى إليها الغرام.

على أن «أنطونيوس» لم يقو فيما بعد أن يُقصي عن مخيلته ذكريات
اللقاء الأول، تلك العظمة الفاتنة التي شملت الملكة الصغيرة، وتعابير
السلطة والقوة التي انبعتت من عينيها، وقد مدت إليه يدها الناعمة
ليقبلها، ناهيك بلباسها المنسجم، المنسق على أخص ما يسمو إليه الفن
والذوق من دقة وإحكام، أما نبرات صوتها فقد وقعت في قلب
«أنطونيوس» وقع نصل مسنون رهيف، هدّه هدّاً، ودكّه دكّاً.

مهما يكن في أمر ذلك الإعجاب الذي حوط به الرومانيون
«أسپاسيا» **Aspasia** الجديدة، وهي بين جدران قصرها الذي أصبح
لهم بمثابة منسك للفن، ومعبد للجمال، ومهبط لوحى الأدب؛ فإن بعضاً
من الذئاب المفترسة، والنمور الجارحة، كانت تحدجها بالنظرات، مكشرة
عن أنياب زرق، لعابها سم زعاف.

هم رومانيون قدسوا الفضائل، أو هم ادعوا أنهم يقدسونها، أخذتهم العزة الرومانية، فراحوا ينقمون على قيصر، قائدهم وحاكمهم المطلق، تبدّله مع الغانية الغربية، التي لم يشرف دمها بأن يكون فيه من الدم الروماني إثارة، تشفع لها عندهم بأن تكون لرجلهم خليلة أو زوجة، ولقد انضم إليهم كل نساء رومية الناهبات، وكان أكثرهن قد لقين من أزواجهن بعض الجفوة، أو آسن منهم نظرات احتقار، أو لفتات سخرية، بعد أن عرفوا كليوطرا عن كثب، وقايسوا بين أنوثتها وأنوثتهن، في زمن اتقدت فيه الشهوات، والتهبت العواطف، وتسلط فيه نداء الجنس، فهزم الفضائل، وهَدَّ ركن الآداب؛ فانحزن مأخوذات بعواطفهن، مسوقات بمشاعرهن، إلى ذلك الحزب، تحدهن الغيرة، وتدفعهن الحفيظة، إلى تحطيم تلك الساحرة الشرقية، التي أصبح قصرها مباءة لرجاهن، بل أصبح لرومية جميعاً، بمثابة البيضة والعش، والسكن والوطن والسكون.

هنالك كان لكليوطرا أعداء، أشد من هؤلاء نكايه، وأصحَّ على الانتقام عزيمة؛ أعداء أثبت من هؤلاء قلوباً، وأحرَّ نفوساً، هنالك كان أعداؤها السياسيون، سياسيون ذوو عقيدة في قداسة التقاليد الرومانية؛ محافظون: يرون في ما بثت كليوطرا من روح في رومية هدماً لتقاليدهم، وذهاباً لطرائقهم، وتطويجاً لأمطهم الموروثة، وكان قد هبت على رومية ريح الاعتقاد بأن قيصر إنما يرمي، بعد الاستئثار بالسلطة، إلى الاستئثار بتاج روماني، يبدد الجمهورية، التي هي بنظامها المعروفة، موئل الديمقراطية، ومباءة الحرية، وبالرغم من مظاهر العظمة والجلال التي

حاول قيصر أن يحوط بها نفسه، وبالرغم من مرائي التحكم التي ظهرت في أعماله، واتصفت بها سياسته، فإن اللوم كل اللوم، إنما انصب على فاتنته الملكية.

أظهرَ قيصر بمظهر المارق عن حكم التقاليد، المستهتر بحق الآداب، المرتد عن منقول السلف الروماني؟ هل اعتدى قيصر على القوانين، وافترى على الشرائع؟ هل امتهن قيصر مخلفات رومية المقدسة، واحتقر كل ما أجلَّ الرومان من موروث الأقدمين؟ نعم، فعل قيصر كل هذا! ولكن اللوم على المصرية الملعونة التي زينت له الفسوق والارتداد، وهوت عليه أمر رومية، والرومان أجمعين.

ومهما يكن من أثر الملكة المصرية في ما بدى على أفعال قيصر من فسوق عن تقاليد قومه، فإن مرَّ الأيام قد أثبت لأهل رومية، أن قيصر إنما ينأى شيئاً بعد شيء، عن أوضاع الجمهورية.

ما الذي يحمل قيصر على أن يطيل أمد سلطته الاستبدادية (الديكتاتورية) بعد أن رفع شبح الحرب ظله عن رومية، ورفَّ عليها السلام؟

غير أن قيصر كان ما يزال المسلط على رومية، الأمرها بما يجب، الناهيها عما لا يجب، القابض عنها ما لا يريد، الباسط لها الكف بما يهوى.

كان يدني إليه من رجال الجيش من يشاء، ويقصي منهم من يشاء،
يقطعهم الولايات، ويملكهم الرقاب، حرّاً مختاراً، فلا إرادة إلا إرادة
قيصر؛ ولا راداً لما يشاء.

أيمضي قيصر في استغلال السلطة إلى غير حد؟ وعند أي حد
سوف تقف سلطة قيصر؟ إن عنوان «الملك» إذا أضفي على قيصر، لن
يزيد من سلطته شيئاً؛ ولكن أهل «رومية» كانوا يحسّون أن قيصر إنما
يريد أن ينتهب أول فرصة لينادي بملوكيته، وليقر السلطة على أساس
من شريعة الملك.

ما مرّ بخيال قيصر في تلك الفترة أن يستشير زميلاً، أو يقف أمام
شيوخ رومية وقناصلها وساداتها، ليؤدي حساباً عما يفعل، أو عما فعل،
بل كانت كل أفعاله نائمةً عنه أنه يحاول أن يتحداهم، وأن يمتحن قدر ما
في أيديهم من قوة، ليزن الأمر، ويكيّف الطرف، هذا إن لم يكن قد قام
في ذهنه أهم كميات مهمة، أو فروض لا حقيقة لها، أو أصفار.

لقد طال المدى بقيصر، وجرى في حلبة التطرف شوطاً حملاً على
أن يهزأ بآداب «كاتو»، وأن يشك في التقاليد، بل وفي الشرائع، ثم في
الآلهة! ألم يعلن في «السناتو» الروماني جهرة: «إن الجمهورية منذ اليوم
اسم لا مسمّى له»! مضيفاً هذا القول إلى أشباه من شاكلته، كانت
جُماعها أبعد ما فاه به «قيصر» عن مظنة التبصر والحكمة؟

كان «قيقرون»¹² زعيم الحزب المنابذ لقيصر، ولقد أخذه من أمر رومية هم عميق، وأزعجه مجرى الحوادث، وكان «قيقرون» أعظم خطباء رومية؛ وكان بعد قيصر، أول روماني يتصدر للزعامة، عن جدارة واستحقاق، ولقد دلت الحوادث التي عركها وعركته، على أنه أصلب الرومانيين في نصره الحق عوداً، وأعظمهم في الدفاع عن مصالح «رومية» تضحية.

كان متجهه الحر، وسياسته الحرة، قد حملته على أن يناصر حزب «يومبيوس» الكبير، ومنذ هزم ذلك الحزب وتقطعت بفلوله الأسباب، انكفأ يعيش بعيداً عن هموم السياسة في قصره على مقربة من «نوسكولوم»، ليأنس بتأملاته، ويجذل بأحاديث نفسه.

ولقد أسف قيصر كل أسف، أن يفقد نصره ذلك الرجل اختر القلب، الصُّلب في الحق، المضحي في سبيل الصداقة، ذلك الرجل الذي رفعته كفاياته ومواهبه السياسية والمدنية إلى الذروة العليا من ذلك البناء الحضري، الذي أقامته «رومية» على كواهل أبطاها الأعماد، أسف «قيصر» أن يجرم من نصيحة يدلي بها «قيقرون» فتصيب محز الأمور، إذا ألمت كارثة، أو نزلت جائحة، أو زلزلت الأرض من تحت «رومية» الخالدة: وما كان اعتزال «قيقرون» العالم الروماني ليؤسف قيصر وحده، وإنما كان فيه إيلام لكليوبطرا، وامتهان لعزتها، كانت تريد، وما أسدَّ ما تريد، أن تجذبه إلى قصرها، فتضمه إلى حلقتها، فيكون من حاشيتها، ثم

¹² يرسمه الكتاب شيشرون خطأ.

تُحكَم معه الحلف والعهد، فإذا استوثقت منه، كان لها العون خير العون،
لما أن تأزف الساعة التي تمبط فيها على غايتها، وتقبض بيديها الحديديتين
على مرماها.

مع ما اتصفت به «كليوبترا» من تلك الصفات التي عددناها،
ومع ما كان في قلبها من جرأة الأسود، وما كان في صدرها من شجاعة
الأفاعي، وما كان في أخلاقها من افتراس النمرات، فإن مطامعها الذاهبة
بها إلى أبعد المذاهب، الرامية بها إلى أقصى الغايات، كانت تقف بعض
الشيء عند «قيقرون»، لتصب عليه نظرة امتزج فيها الحقد بالأمل،
والغضب بالرغبة، والكرهية بالإعجاب، ذلك بأن «قيقرون» دون
سواه، كان الصخرة التي تقف إزاءها مطامع «كليوبترا»، إذ تمر
بمخيلتها مر البروق، لتأمل هنيهة، فيما يكون من سحر ذلك اللسان في
أهل العالم الروماني!

ما وسع «كليوبترا» إلا أن تبوح لصديقها «أتيكوس» بما يجول في
صدرها عن «قيقرون»، ولقد وعدّها «أتيكوس» وكان من أصدقاء
الخطيب الروماني، أن يعمل على إقناع «قيقرون»، تلقاء ما كان لها عليه
من يد، وما آنس في عشرتها من صفاء ومودة، ولم يكن في العالم الروماني
كله من سفير يؤدي رسالة «كليوبترا» إلى «قيقرون»، أعظم من
«أتيكوس» نفوذاً، أو أكثر ملاءمة لطبيعة الظرف السياسي.

وما من شك في أن «أتيكوس» قد أعانه في سفارته، ما كان يلقي
خطيب رومية من ألم يحزُّ في قلبه الكبير، وقد نبذ وطال به النبذ، فإن

رجلاً عرف قدر السلطة، وسكر برحيق القوة، وانتهل من مواردها العذبة، وخطيباً هز أعواد المنابر؛ وسمع من الجماهير تصفيق الأكف، وهتاف الحناجر تزلزل أعمدة الهياكل الرومانية، لن يصاب في حياته بمصيبة، فتكون من الانزواء والأسر الاختياري أشد بنفسه أخذاً، أو بقلبه أمعن عصرًا.

وما أراد إلا أن يسمع تصفيق الأكف وهتاف الحناجر ثانية، فأصاح إلى قولة «أتيكوس» وعمل بنصحه، فقبل أن يصفح «كليوبطرا»، وأن يكون في حلقته محوطاً بأبهة قصرها، يقرأ في مكتبتها ما يرضي قلبه وعقله، ويأنس من جمالها ما يرضي خياله؛ فظهر على عبتها، ملتفعا بشملته الرومانية، التي كان يحسن التلفع بها، على طراز ما عرفه روماني قبله، فاستقبلته كليوبطرا، ومن ورائها قيصر، مفعم القلب بذكريات الانتصار.

ولقد أشرق وجه «كليوبطرا» واستنار بتلك الأشعة التي كانت تغمر ملامحها عقيب انتصار تناله، أو بلوغ غرض تصييه، فاستقبلت ضيفها العظيم بكل حفاوة، وحوطته بكل إكرام، ومن أجل أن تختلب خطيب «رومية» الأعظم، مضت ليلة ضيافته الأولى تفرغ عليه من ضروب البذخ، وتضفي عليه من صنوف الكرم، ما حملها على أن تطلعه على كل التحف الفنية النادرة، والمآثورات القديمة التي لا تقوم بمال، مما يزدان بها قصرها العظيم؛ ذلك القصر الذي أصبح في رومية مضرب المثل، بل قرن بقصور الشرق العظيمة في فارس والهند.

من فوق منضدة من المناضد، فرش غطاء من الديباج القديم مطرز بالذهب، تطريزاً يظهر شيئاً من وقائع الفراعنة وتاريخهم القديم، ومن فوقه كتاب من ورق الكتان الثمين، به صور تمثل حضارة مصر من أقدم عصورها، وقد يقبل الخطيب الأعظم صفحات ذلك الكتاب، وقد عمل فيها الزمن فاصفرت أطرافها، وظهرت على بعضها سُفْعٌ هي من إملاء الدهر، دَمَغَ بها الأسطر الميروغليافية التي مضت الملكة الصغيرة تترجمها للروماني الكبير، في لغة لاتينية فصيحة، كان لها من الأثر في قلب «قيقرون» أضعاف ما لصوتها الحنون الجميل.

ولما أن رأت أن «قيقرون» قد استغرقت تلك الصفحات، ظنت أو خيّل لها أنها قد أخضعت الرجل، ونالت من رضاه ما أملت، فوعدته بأن ذلك الكتاب، سوف يحمل إلى قصره في «توسكولوم» صبيحة الغد.

غير أن رجلاً من طراز «قيقرون»، فيه خلاق القوة والجفوة، وانماز من أقرانه بفطرة الاستقلال في الرأي، وتقديس الحرية، قلما تستهويه؛ مثل هذه الأشياء التي هي إلى جانب شخصته من صُغريات الأمور، فإن العهود التي كانت قد قطعت لحزب «رومية» المحافظ، تلك العهود التي حملته على الظن بأن «قيصر» سوف يعود إلى خطته الحرة القديمة، كانت قد عصفت بها خيلاء «قيصر» واستعلاؤه، وثورته على التقاليد، وتحكمه في أمور «رومية» وانفراده بالرأي فيها، وعامة ذا لم يترك في عقل «قيقرون» محلاً لوهم، أو مكاناً لهوى، فما كان ليشك أن سقوط الجمهورية كان وشيكاً، وأن دقائقها الأخيرة قد حانت، ولهذا لم يكن في

الدنيا من مكان يستشم فيه «قيرون» ريح الاستبداد فيخنقه، أو يستروح فيه هواء الديكتاتورية، فيكاد يذهب بأنفاسه، من قصر تلهو فيه «كليوبطرا» ويمرح «قيصر»، وإلا فكيف يتفق أن يجمع مكان واحد تاج الملك، وحكم الجمهورية؟ ثم يشعر «قيرون» أنه في جو طبيعي، على مألوف ما يوائم آراءه ومبادئه في الحياة والحكم؟ فأخذت زيارته لقصر «كليوبطرا» تقل شيئاً بعد شيء، وتتباعد فتراتهما، فقد آنس أنه في خارج جدران ذلك القصر أكثر حرية في التعبير عن آرائه، حتى لقد قال ذات يوم لصديقه «أتيكوس» مشيراً إلى الجمع الذي كان يغشى بيت «قيصر»: «إني لأشعر بشيء من الاستيحاش في مكان لا يراعى فيه الاحتشام».

على أن مثل هذه النقود والكلمات، لم يكن مما يأبه له «قيصر»، فقد كان يعتقد أن كل العقول دون عقله، وأن كل صفات الرجال دون صفاته، فما الذي يخشى «قيصر» من رجال هم دونه في كل شيء؛ فصاحة لسان، وقوة بيان، وشجاعة قلب، بل أقل منه تقاليد! وأية تقاليد تذكرها رومية، فتطاول تقاليد قيصر، فاتح الدنيا وسيد العالم؟

كان يظن أن شيئاً واحداً ينقصه، ليصبح على قمة الدنيا جميعاً، كان ينقصه حرب جديدة، يأتي فيها من الأعمال ما عجزت عنه «رومية» في سالف زمانها، بل ما عجز عنه هو بنفسه، في سابق أيامه، مغاز جديدة، وحروب طاحنة؛ ذلك ما كان يجول في صدر قيصر، حروب لا تُذكر إلى جانبها حروب «رومية»، إلا لتظهر كأنها اللعب مقيساً على الجدد، أو

الصغائر مقيسة على العظام، حروب يذكرها التاريخ وينسى ما عداها، هذا والزمان يرقبه، وأظفر الغدر يمتد إليه عن كذب، بعد أن ظل مطويًا في قنابه¹³ عهدًا، كادت تنسى فيه «رومية» سيل الدماء.

كانت بلاد «فارس» مرمى نظر قيصر، كانت «فارس» تغشى خياله، وتزوده بتلك الأحلام الشهية؛ أحلام الشرق، وأحلام القيصرية الرومانية، كان نظره يمتد إلى «فارس»، مجال المخاطر التي أمدت الإسكندر المقدوني بالمجد الخالد والعز التالد، صحاراها المترامية الأطراف، ونجودها العالية، وسهولها الخصيبة، وجمالها الشرقي، ومدائنها العامرة، وأثمارها الجارية، ووديانها الفاتنة التي يغذيها الفرات، ويمنحها دجلة البهاء والإشراق، حدائقها المعلقة، وبروجها المشمخرة، وقصورها المرمرية، ومعابدها القائمة على تلك العمدان التي أقيمت رمزًا للعزة، وعنوانًا على الخلود: بُسطها التي تشارك الدهر، وورودها الجميلة، وخزفها المتقن الصناعة، كل مفاتن تلك القيصرية العظيمة، كانت قد اختلبت لب قيصر، حتى لم يخل في قلب «قيصر» مكان لغير «فارس».

أية فتنة في «فارس»! وأي ظلام واربداد في بلاد «الغال»! أي إشراق وجمال في «فارس»! وأي حزن واكدرار في بلاد «بريطانيا»! أما إذا سنح له أن تلمع نسوره الرومانية تحت شمس «فارس»، فلا المجد، ولا العظمة، ولا الخلود بكافيته مطمعمًا في الحياة، أيجوس خلال الديار التي

¹³ القناب: الجراب الذي يدخل فيه السنور أظفوره.

كانت من قبل مَجاس المقدوني الأعظم، ويستولي على تلك الثروات التي تعجز الدنيا كلها عن أن تجمعها في مكان، غير «فارس» القديمة؟

وكانت «كليوبترا» أكثر من «قيصر» تحمّسًا لتلك الحروب، فكانت تذكي خياله بالمطامع، وتشعل في نفسه حب العظمة الدنيوية، ومرماها أن تفوز من «قيصر» بكل ما يجوز من ثمار النصر، فتسخر «رومية» في شخص قيصر، لتنال في النهاية غرضها الأخير، وما غرضها إلا أن تقف على هام الدنيا، وتسخرُ من الأقدار.

لم تأبه «كليوبترا» بما كان يحوم حولها من مظان الحسد والكراهية، ولم تُلن قناتها نظرات المقت التي كانت تبعث من عيون أهل «رومية»، ولكنها كانت تعتقد اعتقاد أهل العقول الرشيدة، أن ما من شيء يلين قناة الأرسطوقراطية الرومانية، بقدر ما تلينها قوة «قيصر»، فمن أجل أن تركز القوة في شخص «قيصر»، كان لا بد لها من أن تعمل على تثبيتها في أنحاء العالم كله، من أقصى الشرق إلى حدود مملكتها العظيمة، حتى تصغر «رومية» في جانب الدنيا، وتصغر الدنيا في جانب «قيصر»، بذلك تكبح جماح الرومان، وتحملهم على الرضا ببقائها تحت كنف قيصر، ما دام قيصر تحت كنفها، وبذلك تخلص كليوبترا من الدنيا بالدنيا، وتفوز من العالم بالعالم.

كانت تريد أن تقيم ذلك الصرح من رءوس الأمم التي يطيح بها سيف «قيصر» في الشرق والغرب، حتى إذا كمل بناؤه، وشيدت

أركانها، وقفت من فوق قمته العليا تنظر إلى الدنيا في قبضتها الناعمة،
ممسكة ببنائها الرخص على أعنتها.

قد نتساءل: لِمَ كل هذا؟ ولو أنك سألت «كليوبطرا» هذا
السؤال، إذن لعجزت عن أن تجيب لماذا؟

وعلى الرغم من أنه كان يصعب على «كليوبطرا» أن تبارح ذلك
القصر الذي كان يوحى إلى العالم كله بأن «كليوبطرا» سيدة العالم
الروماني، فإن رجوعها إلى مصر كان أشد عليها صعوبة، أترجع إلى مصر
بغير «قيصر»، لتعاشر أولئك الذين ما حدثوا مرة إلا بمحدث الثورات،
وما إلى الثورات من أحاديث؟ كلا إن ذلك مما لا يتفق وعقلية
«كليوبطرا»، إنما يتفق وعقليتها أن ترافق «قيصر» إلى أقصى الشرق،
تشاركه المشاق، وتشجعه على القتل والتخريب، فأخذت تعد العدة،
وتجهز جهاز السفر الطويل.

كان من المعتقدات السائدة في «رومية» أن «قيصر» سوف يتزوج
من «كليوبطرا» عقيب عودته من مغزاته الكبيرة في بلاد «فارس»، وأن
يعترف ببنة الغلام الذي استولدها إياه، وراج الظن بأن «قيصر» سوف
يضيف إلى السلطة المطلقة التي كان يمارسها في العالم الروماني صولجان
الملك، وأنه كان يحاول أن يؤسس قيصرية مترامية الأطراف، الإسكندرية
عاصمتها الأولى، ولقد أشفق الرومانيون أن تكون هذه مطامع «قيصر»
وأخذهم مما روج خصومه من الإشاعات هم عميق، ولقد شعروا بأن
العزة الرومانية قد خدشت في أعز ما لديها، وأن أمانهم أخذت تنهار

وأن أقدس ما تطلعوا إليه بدأ ينحل ويتنخر؛ إذ خيل إليهم أن ما طمعوا فيه من سيادة «رومية» على الدنيا، قد يتحطم وينهار في ساعة واحدة، وما لا شك فيه أن الرومانيين إذا تصوروا أن «رومية» مهددة بالانقسام، مُندرةً بالخراب، فإن ذلك مما يبعث في قلوبهم أشد الحزن، ويبعث في قلوبهم أنكى حالات القسوة وحب الانتقام.

رमित «كليوبطرا» في هذه الآونة، كما رميت من قبل، بأنها مصدر الشر، ومبعث القلق، ومنبت الفساد، ولقد تضاعف في قلوب الرومان مقتنها، وزادت كراهيتها، ونجح أعداؤها في ترويح الأكاذيب عنها، وبخاصة في إلقاح العقل الروماني الساذج بأن «كليوبطرا» قد قطعت على نفسها عهداً لتحكمن «رومية» يوماً ما، ولما أن اعتقد الجماهير، أن الملكة الطامعة، قد امتدت مطامعها إلى «رومية» نفسها، غير مقتصرة على قيصر وحده، زاد بها الهم، وانساب في نفسها حب الانتقام، ولقد قام شغب شديد في «رومية» مرة، لما أن ظهرت في شوارعها محمولة على هودجها الملكي، وقام في أنفس الناس ميل إلى العمل على أن تضطر الدخيلة المصرية عنوة على أن تغادر بلاد الرومان، وأن تفسر على أن تعود إلى بلادها: بلاد التماسيح.

ولقد وقع في أذن «قيصر» شيء من هذه الأقاويل، فكان له من سوء الوقع في نفسه، أكثر مما كان للنقود التي وجهت إلى مسلكه وإلى أعماله، أن يجراً الرومان على أن يمتهنوا تلك التي أحبها وعبدها وفضلها على نساء العالمين! أن يتفوه الرومان عنها بكلمات يعوزها الاحترام

والتقديس! ذلك ما لا يستطيع «قيصر» أن يتسمح فيه، أو يهمل النظر في أمره، ولقد أشار في درج كلامه مرة إلى فئة من أولاء فقال: «سوف ترون العقاب الذي يتزل بهؤلاء المناكيد المأفونين».

واستدعى المثال «طيموماخوس» تواءً، وكان من أشهر مكبًا على إخراج تمثال للملكة مصنوع من العاج، مُتزل بالذهب الخالص.

— «كم من الزمن تطلب للفراغ من عملك.»

فأخذ المثال يفكر، وحسب في نفسه الزمن الذي يستغرقه العمل في إنزال الذهب في جسم التمثال، ولم يكن قد بدأ به بعد، وأجاب في حذر: «أحتاج ... عشرين سنة على الأقل».

— «لك ثلاثة أيام، أريد بعدها أن أرى التمثال مقامًا على قواعده في معبد فينوس».

كان كل روماني يخشى تلك الساعات التي تمتاز فيها أعصاب «قيصر» المكدودة بماضٍ مفعم بأعظم المخاطرات، فالويل لمن يقف عند ذاك في سبيله، أو يخالف له أمرًا، وأقيم التمثال في اليوم المعين باحتفال قلما رأت «رومية» أعظم منه بهاءً أو أشد رواءً، ولكن المقت كان في النفوس مكبوتًا، نفوس رجال الدين والنبلاء والضباط والقواد على اختلاف المراتب والمنازل، إذ اضطروا أن يركعوا أمام الآلهة الجديدة التي غزت «رومية» في أعز معاقلها؛ في هياكلها ومكان العبادة فيها، عبادة الآلهة، وعبادة التقاليد، وعبادة الجمال.

بعد فترة من الزمان أراد «قيصر» أن يمَسَّ الرأي العام الروماني ليلبو ما فيه من قوة، وما يجبئ من ميول، أراد أن يمتحن ذلك بتجربة جديدة.

كان ذلك في عيد «لوفار كاليا»، وهو عيد «كرنفالي» عدته بضعة أيام، اعتاد فيه فتيان النبلاء أن يظهرُوا في شوارع رومية نصف عرايا، يضربون المارة في رفق بسياط قصيرة من الجلد، بدعوى أن ذلك مجلبة للخط الحسَن والتوفيق، وبحكم أن قيصر كان حبرُ رومية الأعظم، رأس الاحتفال، فجلس في كرسي من العاج المموَّه بالذهب، وإلى جانبه «كليوبطرا»؛ وبعد أن اصطبغت الأرض بدماء المعزى والكلاب جرياً على مألوف العادة في ذلك العيد، كان «قيصر» على وشك الانصراف، إذ تقدم إليه «مرك أنطونيوس»، مخترباً صفوف الناس، وتقدم إليه بتاج محاولاً أن يضعه على رأسه.

ارتفعت من بعض الجوانب أصوات، وظهر بعض الهرج، فكان أشبه بذاك الديب الذي يغشى سطح البحر العميق قبيل العاصفة، غير أن «قيصر» قد أحس أن زمن هذا لم يئن، فتنحى قليلاً، غير أن «أنطونيوس» عاود الكرة عليه، بتأثير «كليوبطرا» التي لا يبعد أن تكون مصدر هذه المأساة، فتقدم إليه «أنطونيوس» مرة ثانية، وبيده التاج المتوهج، ملحاً في أن يقبله «قيصر»، وأن يزين به الرأس التي تنحني أمام أكبر رأس في «رومية».

ولكن الدمدمة، وكانت أشبه بدمدمة بركان يحاول أن يخرج حممه، قد قرعت أذني «قيصر» بأشد مما قرعتها أول مرة، حتى لقد خيّل إلى «قيصر» أن العاصفة قد بدأت تداعب الأمواج، فما كان «لقيصر» بعد هذا إلا أن يشيح بوجهه عن التاج، ثم يلقي به بعيداً عن رأسه، هنالك شهد العالم جميعاً أنه رفض أن يكون ملكاً، وأنه ألقى بالتاج إلى الأرض، فهل يتهمه بعد ذلك أهل «رومية» بمطمع الملكية، أو يتهمون «كليوبطرا» بأنها توسوس له بمطامع الملك؟

لقد خدع الكثيرون بهذا المنظر التمثيلي، فهوا يصفقون بأيديهم، ويرسلون هتاف الاستحسان من حناجرهم، أما الذين هم كانوا أنفذ نظراً، وأعمق فكرة، فقد همس في وعيهم صوت مصدره العقل: «لا شك في أن «قيصر» إنما يرفض اليوم تاج الملك، ولكن ليقبله بعد أن يعود إلينا من مغزاته، رافعاً ألويا الانتصار، عاقداً فوق رأسه أكاليل الفتح العظيم»، هنالك تكونت النواة الأولى من مؤامرة أخذ من ثمّ جيل يرويها عن جيل، وأهل ينقلها عن أهل، وفي زوايا «رومية» المظلمة كنت ترى المتآمرين مجلدين بسوادين: سواد الليل، وسواد الدسيسة، ليكونوا للقدر أداة القضاء على «قيصر».

كان الربيع قد أخذت تبسم براعمه الأولى، كان ذلك في منتصف شهر «مارس» الشهر الذي انتحل له اسم إله الحرب، فيه تهب على «رومية» رياح شمالية عاتية، تخضب سماءها بسحب حمر، انعكست عليها أشعة الشمس غروباً وشروقاً، فتلوح من ورائها السماء كالحلة الصفحة،

باهتة الأديم، فيه تهنز الأشجار بعد سبات الشتاء، وتربو وريقاقها وبراعمها، وتعمر تلال «رومية» السبعة بعد انجرادها، بتلك الزهرات المخبوءة بين الحشائش التي تنبت ومقدم الربيع، في سفوح تلك التلال تنام المدينة الخالدة، حاملة في بحر من الليل الساكن، فإذا تساقطت كسف الظلام عليها، أخذت الحركة تقل في شوارعها وممراتها، شيئاً بعد شيء، حتى تموت جلبة النهار في لباس الليل، تلك سويعات يعود فيها المكدودون، بعد عمل النهار، ليتقبلوا من ساعات السواد، نعمة الراحة في بيوتهم، التي يشرفون منها على حظوظ العالم المعمور، وفي تلك الساعات كنت ترى «قيصر» بعد كد النهار في الإشراف على مهينات المغزاة الفارسية، مسرعاً عجلان الخطى، ميمماً شطر القصر الذي تنزله فاتنته الملكية.

تراها جالسة بمقربة من النافذة، حيث تستطيع أن تراه عائداً إليها، غارقة في أحلامها، مأخوذة بأوهامها، هنالك بعد أيام معدودات يغادران رومية للرومان، وبينما يكون «قيصر» في جوف آسيا يشن الغارات شرقي بحر «قزوين» تكون هي في مصرها على ضفاف النيل، ولقد همها الفراق وأفرعها، وأوحى إليها بأنه فراق سوف يكلفها الموض، ويوليها الصعاب، غير أنها اطمأنت للفراق، وراضت نفسها عليه، لعلمها بأنه محتوم لا مفر منه، أليس الجد للعظماء بضروري، كالحبز للدهاء والدؤبان؟ أما إذا تم لقيصر أن يصبح سيد «فارس»، فإنه ولا شك يصبح سيد الدنيا، أنه ليكون في مقدوره أن يضعها على عروش نينوة وبابلونيا وفارس، ما من قوة في الدنيا تستطيع أن تصدهما عمًا يريدان، فهما معًا

سوف يشيدان عاصمة ملكهما، أما «رومية»، تلك التي ما مرّت
«كليوبطرا» في ناحية منها إلا وزّارت زئير الذئاب الجائعة النهمة،
فسوف تضطر إلى أن تستقبلها بالهتاف خاشعة، ودموع التوبة تجري على
خديها.

على مثل هذه الخيالات القوية الصريحة، وبمثل هذه الأحلام التي
هي أشبه بأحلام «سميراميس»، كانت لعنة «إيدس مارس» سوف ترسل
صواعقها، وتزل غضبها العاصف الشديد.

كاد الصبح يتنفس؛ وقد غادرها «قيصر» منذ ساعة واحدة، غير
أنه ضمها إلى صدره ضمة أحست بها «كليوبطرا» أن ضلوعها تكاد
تمزق، وأن قلبها يكاد يعتصر، لم هذا، الآن «قيصر» يشعر بأنه سوف لن
يراها!

بومضة من ومضات ذلك الوحي الغريب، بل الإلهام السماوي،
الذي قد يتزل بعض الأحيين على قلوب البشر، تشبثت به «كليوبطرا»
متشفعة به أن لا يفارقها.

- «لم تخرج اليوم باكراً؟ لقد ذكرت أنك متعب! ظلّ هنا
واسترح.»

ولكن لا، إن «قيصر» كان مُنتظراً، وحذر أن يتأخر أرسل
«بروطوس» زميله «كشيوس» ليتلقاه؛ ومن غير أن يستشف «قيصر»
شيئاً مما خبأ له الدساس القاتل، ألقى إلى «قيصر» أن يسرع الخطى، وأن

يعجل في الذهاب، ذلك بأن أمورًا عظيمة لا يقطع فيها «السناتو» الروماني برأي من غير أن يستطلع رأي «قيصر».

هنالك في «السناتو» وقعت الكارثة، سمع لغط، فوقف السابلة من الخارج يستمعون متسائلين: ماذا جدّ؟

وبعد قليل ظهر بعض الشيوخ على الشرفة، صفر الوجوه مرتعبين، وصاح بعضهم «قتل قيصر».

وعلا الصياح وارتفع العويل من كل مكان، ولكن صوت المتآمرين كان عظيمًا، إذ صاحوا أجمعين والسيوف في أيديهم تلمع، وما تزال تقطر من دم قيصر: لقد أنقذنا شرف الجمهورية، وانتقمنا لها!

فزع الناس أشد الفزع، وهبوا هاربين كأنما هم في يوم الحشر الأعظم، أو نهر انهارت سدوده فتدافقت لججه، وانتشروا في نواحي المدينة، وفي لمح البصر، ذاع النبأ في «رومية»، حتى لم يبق فيها حجر واحد لم يسمع بمصرع قيصر، وعم الرعب المدينة، وسادها الفزع الأعظم؛ فأغلقت الحوانيت، وسدت النوافذ، وغلقت الأبواب، ليخفي كل إنسان أكنته «رومية» في ذلك اليوم، ما ناله من خوف واضطراب، لقد علم الرومان أن كارثة حلت بهم، وأنه على إثر «قيصر» سوف تذهب أرواح وتطيح رءوس.

كان هذا الحادث نهاية أحلام «كليوطرا» الذهبية؛ فخيّل إليها أن هاوية سوداء فتحت تحت قدميها، وابتلعت في جوفها العميق الهاوي كل

مستقبلها، لقد تبدلت الدنيا المخضوضرة الزاهية، في لحظة واحدة،
صحراء قفر مجدبة.

وهنالك على ضفاف نهر «التبير»، كانت تعدو شراذم من الجند
شكت السلاح، وهي تلوح بشارات عليها صور عظام جماجم بشرية،
ذلك رمز الحرية الرومانية.

ها هم قد وقفوا قليلاً بجوار منزل «قيصر»، ومن حناجرهم القوية
صدرت هتافات، أفسدت على الطبيعة بهاء يومها الربيعي.

— لتسقط المرأة المصرية! اقتلوها! اقتلوها!

كانت هذه الأصوات عين الأصوات التي ترسلها الحناجر البشرية،
في كل ثورة من الثورات التي شهدت فظاعتها البشرية على طول السنين
والأحقاب.

هنالك من حول الملكة نفر من الخدم والعييد، مصممين على أن
يدافعوا عنها حتى الموت، ولكن الموقف كان أجل من أن يترك في
رءوسهم عقولاً يفكرون بها، أو قلوباً يصمدون بها في القتال.

كان هنالك رجل واحد لم تخنه شجاعته يوماً، ولا فارقه عقله
ساعة، مهما اذلهم الخطب، أو تنكرت الأقدار، هنالك كان
«أفوللودورس»: فسارع إلى القول: ينبغي لجلالتك أن تغادري هذه
المدينة الدموية بغير إبطاء.

غير أنه لم يكن من طبع «كليوبطرا» أن تخضع للتهديد أو تنحني للوعيد، فنارت على نصيحة أستاذها وعاندت في تنفيذها، كانت فطرتها تحملها على أن تقاوم هذه الجماهير.

من ذا الذي يدري، لعل هناك بقية من أمل، أن «قيصر» لا بد من أن ينتقم له منتقمون! فإن حزباً على رأسه «أنطونيوس» قد تكون سراعاً والتأمت وحداته، لقد أحب «أنطونيوس» قائده «قيصر» و قدسه ... ولعله ينفذ وصيته فيعترف «بقيصرون» ابنه منها وورثته في ...

ما كانت هذه الأمانى غير أحلام، أحلام إن تمادت فيها «كليوبطرا» فقد تودي بها، بل ربما أودت بها وبقيصرون.

وتعال الصيحات، فلم يكن هنالك من منجى إلا بالخضوع إلى نصيحة «أفوللودورس»، وكان قد أعد كل شيء للهرب، ومغادرة الأرض الدموية.

من خلال تلك الحداثق الغناء، وبين مفاوز التلال الموحشة الجرداء، والاحتياط من الأنظار ومن قطاع الطرق، استعادت «كليوبطرا» ذكريات أربع سنوات فرطن، عندما رجعت من منفاها تطلب حماية «قيصر»، وقد اضطهدها أخوها.

هنالك أرخت على وجهها قناعاً كثيفاً، وتسلمت من «رومية» الهادرة بالثورة، الهابة إلى السلاح.

قد تحطم قلبها، وتحطمت أمانيتها، أحست أن الدنيا تدور بها، وأن
في كل خطوة فجوة من فجوات الأرض تلقاها.

الخوف، والوحدة ...

كانت آمنة بقيصر، كانت مطمئنة إلى الدنيا بقربه.

منذ لحظات قصار، كانت الدنيا أمناً وسلاماً؛ فانقلبت في لحظة
واحدة، رُعباً وحرَباً.

لقد ساورتها هذه الأفكار، فغشت على عقلها وخيالها بغشاوة
كثيفة من القلق والاضطراب، غير أنه إلى صدرها استندت تلك الرأس
الصغيرة التي تحمل ملامح الراحل العظيم، فضمت الطفل إلى صدرها،
وقبلت فاه الباسم الجميل.

«كلا، إني لم أفقد كل شيء.»

ذلك همسٌ أحيى في قلبها الأمل تارة أخرى.

الفهرس

- 5 الإهداء ■
- 7 الحب الأول أو قيصرو و كليوباترا ■